من كليات رسائل النور

مرشد الشباب

للنجاة في يوم الحساب

بديع الزمان
سعيد النورسي

ترجمة
إحسان قاسم الصالحي


للنجاة في يوم الحساب

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: مرشد الشباب للنجاة يوم الحساب

اسم المؤلف: بديع الزمان سعيد النورسي

اسم المترجم:إحسان قاسم الصالحي

اسم المطبعة: مطبعة الخلود- بغداد- العراق

الطبعة : الأولى – ١٩٨٨م

من كليات رسائل النور



تأليف
بديع الزمان سعيد النورسي

ترجمة
إحسان قاسم الصالحي

الكلمة الأولى

«**بسم الله**» رأسُ كلِّ خيرٍ وبدءُ كل أمر ذي بال، فنحن أيضا نستهل بها.

فيا نفسي اعلمي أن هذه الكلمةَ الطيبة المباركة كما أنها شعارُ الإسلام، فهي ذكرُ جميعِ الموجودات بألسنةِ أحوالها.

فإن كنتِ راغبةً في إدراك مدى ما في «**بسم الله**» من قوة هائلة لا تنفد، ومدى ما فيها من بركة واسعة لا تنضُب، فاستمعي إلى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة:

إن البدوي الذي يتنقل في الصحراء ويسيح فيها لابد له أن ينتميَ إلى رئيس قبيلة، ويدخلَ تحت حمايته، كي ينجو من شر الأشقياء، وينجزَ أشغاله ويتداركَ حاجاته، وإلّا فسيبقى وحده حائرا مضطربا أمام كثرة من الأعداء، وكثرة من الحاجات التي لا حدَّ لها.

وهكذا.. فقد توافق أن قام اثنان بمثل هذه السياحة. كان أحدهما متواضعا، والآخرُ مغرورا. فالمتواضع انتسب إلى رئيس، بينما المغرورُ رفض الانتساب. فتجوّلا في هذه الصحراء. فما كان المنتسب يحلّ في خيمة إلّا ويقابَل

بالاحترام والتقدير بفضل ذلك الاسم. وإن لقيَه قاطعُ طريق يقول له: «إنني أتجوّل باسم ذلك الرئيس». فيتخلى عنه الشقي. أما المغرورُ فقد لاقى من المصائب والويلات ما لا يكاد يوصَف، إذ كان طوال السفرة في خوف دائم ووَجَل مستمر، وفي تسوّل مستديم، فأذلّ نفسه وأهانَها.

فيا نفسي المغرورةَ! اعلمي أنك أنتِ ذلك السائح البدوي. وهذه الدنيا الواسعةُ هي تلك الصحراء. وإن «فقركِ» و«عجزكِ» لا حدّ لهما، كما أن أعداءَك وحاجاتِك لا نهاية لها. فما دام الأمر هكذا فتقلّدي اسمَ المالك الحقيقي لهذه الصحراء وحاكِمها الأبدي، لتَنجيَ من ذُلّ التسول أمام الكائنات ومهانةِ الخوف أمام الحادثات.

نعم، إن هذه الكلمة الطيبة «**بسم الله**» كنز عظيم لا يفنى أبدا، إذ بها يرتبط «فقرُك» برحمة واسعة مطلقة أوسعَ من الكائنات، ويتعلق «عجزُك» بقدرة عظيمة مطلقة تمسك زمام الوجود من الذرات إلى المجرات، حتى إنه يصبح كلّ من عجزك وفقرك شفيعين مقبولَين لدى القدير الرحيم ذي الجلال.

إنّ الذي يتحرك ويسكُن ويُصبحُ ويُمسي بهذه الكلمة «**بسم الله**» كمَن انخرط في الجندية؛ يتصرف باسم الدولة

ولا يخاف أحدا، حيث إنه يتكلم باسم القانون وباسم الدولة، فيُنجِز الأعمال ويَثبُت أمام كل شيء.

وقد ذكرنا في البداية أنّ جميعَ الموجودات تذكُر بلسان حالها اسمَ الله، أي أنها تقول: «**بسم الله**»، أهو كذلك؟

نعم، فكما لو رأيت أن أحدا يسوق الناسَ إلى صعيد واحد، ويُرغمهم على القيام بأعمال مختلفة، فإنك تتيقّن أن هذا الشخص لا يمثّل نفسَه ولا يسوق الناس باسمه وبقوته، وإنما هو جندي يتصرف باسم الدولة، ويستند إلى قوة سلطان.

فالموجودات أيضا تؤدي وظائفَها باسم الله. فالبذيرات المتناهية في الصغر تحمل فوق رؤوسها باسم الله أشجارا ضخمة وأثقالا هائلة. أيْ أن كل شجرة تقول «**بسم الله**» وتملأ أيديَها بثمرات من خزينة الرحمة الإلهية وتقدّمها إلينا. وكل بستان يقول «**بسم الله**» فيغدو مطبخا للقدرة الإلهية تنضج فيه أنواع من الأطعمة اللذيذة. وكل حيوان من الحيوانات ذات البركة والنفع -كالإبل والماعز والبقر- يقول «**بسم الله**» فيُصبح ينبوعا دفّاقا للّبن السائغ، فيقدّم إلينا باسم الرزاق ألطفَ مغذّ وأنظفَه. وجذورُ كل نبات وعشب تقول «**بسم الله**» وتشقُّ الصخور الصلدة باسم الله

وتثقبها بشعيراتها الحريرية الرقيقة فيُسخَّر أمامَها باسم الله وباسم الرحمن كلُّ أمر صعب وكلُّ شيءٍ صلد.

نعم، إن انتشار الأغصان في الهواء وحملَها للأثمار، وتشعّبَ الجذور في الصخور الصماء، وخزنَها للغذاء في ظلمات التراب.. وكذا تحمّل الأوراق الخضراء شدةَ الحرارة ولفحاتها، وبقاءها طرية نديّة.. كلُّ ذلك وغيرُه صفعة قوية على أفواه الماديين عَبَدة الأسباب، وصرخة مدوية في وجوههم، تقول لهم: «إن ما تتباهَون به من صلابة وحرارة أيضا لا تعملان بنفسهما، بل تؤديان وظائفَهما بأمرِ آمرٍ واحدٍ، بحيث يجعل تلك العروق الدقيقة الرقيقة كأنها عصا موسى تشق الصخور وتمتثل أمر ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ (البقرة: ٦٠) ويجعل تلك الأوراق الطرية الندية كأنها أعضاءُ إبراهيم عليه السلام تقرأ تجاه لفحةِ الحرارة: ﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا ﴾ (الأنبياء: ٦٩)».

فما دام كل شيء في الوجود يقول معنىً «**بسم الله**» ويجلب نِعَم الله باسم الله ويقدّمها إلينا، فعلينا أن نقول أيضا «**بسم الله**» ونعطي باسم الله ونأخذ باسم الله. وعلينا أيضا أن نردّ أيدي الغافلين الذين لم يعطوا باسم الله.

سؤال: إننا نبدي احتراما وتوقيرا لمن يكون سببا لنعمة علينا، فيا ترى ماذا يطلب منا ربنُّا الله صاحبُ تلك النِعم كلها ومالكُها الحقيقي؟

الجواب: إن ذلك المُنعم الحقيقي يطلب منّا ثلاثة أمور ثمنا لتلك النعم الغالية:

الأول: الذكر.. الثاني: الشكر.. الثالث: الفكر..

فـ«**بسم الله**» بدءا هي ذكر، و«**الحمد لله**» ختاما هي شكر، وما يتوسطهما هو فكر، أي التأمل في هذه النعم البديعة، والإدراك بأنها معجزةُ قدرةِ الأحد الصمد وهدايا رحمته الواسعة.. فهذا التأمل هو الفكر.

ولكن أليس الذي يُقبّل أقدامَ الجندي الخادم الذي يقدّم هديةَ السلطان يرتكب حماقةً فظيعة وبلاهة مشينة؟ إذن فما بال مَن يُثني على الأسباب المادية الجالبة للنِعم، ويخصصها بالحب والودّ دون المنعم الحقيقي! ألَا يكون مقترفا بلاهةً أشدَّ منها ألف مرة؟

فيا نفس!! إن كنت تأبَين أن تكوني مثل الأحمق الأبله، **فأعطي باسم الله .. وخذي باسم الله.. وابدئي باسم الله.. واعملي باسم الله**.. والسلام.

* * *

كيف ننقذ آخرتنا

حوار مع عدد من الشباب الذين تتجاذبهم الإغراءات والأهواء ولكنهم لم يفقدوا بعدُ صوابهم.

طلب عدد من الشباب أن تُعينهم «رسائل النور» وتمدّ لهم يد النجدة سائلين:

كيف يمكننا أن ننقذ آخرتنا إزاء ما يحيط بنا في زماننا هذا من فتنة الإغراء وجاذبية الهوى وخداع اللهو؟

فأجبتهم باسم شخصية «رسائل النور» المعنوية قائلا:

القبر ماثل أمام الجميع! لا يمكن أن ينكره أحد. كلُّنا سندخله لا مناصَ! والدخول فيه بثلاثة طرق لا غيرها:

الطريق الأول: يؤدي إلى أن القبر باب ينفتح للمؤمنين إلى رياض جميلة وعالمٍ رحب فسيح أفضلُ وأجملُ من هذه الدنيا.

الطريق الثاني: يوصل إلى أن القبر باب لسجن دائم للمتمادين في الضلالة والغيّ -مع إيمانهم بالآخرة- فهم يعامَلون بجنس ما كانوا يعتقدونه ويرون الوجود والحياة من خلاله؛ فيُعزَلون عن جميع أحبتهم في هذا السجن الانفرادي، لعدم عملهم بما كانوا يعتقدونه.

الطريق الثالث: ينساق إليه مَن لا يؤمن بالآخرة من أرباب الضلالة، فإذا القبر باب إلى العدم المحض وإعدام نهائي له. والقبر في نظره مشنقة تُفنيه وتُفني معه جميعَ أحبته؛ فهذا هو جزاء جحوده بالآخرة.

هذان الشِّقان بديهيان، لا يحتاجان إلى دليل، إذ يمكن مشاهدتهما رأي العين.

فما دام الأجلُ مستورا عنا بستار الغيب، والموتُ يمكنه أن يدركنا في كل حين، يضرب عنق الإنسان دون تمييز بين الشاب والشيخ، فلا شك أن الإنسان الضعيف الذي يرى هذه القضية المذهلة أمام عينيه، في كل وقت، سوف يتحرى عما ينجيه من ذلك الإعدام، ويبحث عما يحوّل له بابَ القبر من ظلمة قاتمة إلى نور ساطع ينفتح إلى عالم خالد ورياض مونِقة في عالم النور والسعادة الخالدة.. ولا ريب أن هذه المسألة هي القضية الكبرى لدى الإنسان، بل هي أعظمُ وأجلُّ من الدنيا كلِّها.

إن ظهور هذه الحقيقة؛ حقيقة الموت والقبر، بالطرق الثلاثة المتقدمة، ينبئ بها مائة وأربعة وعشرون ألفا من المخبرين الصادقين، وهم الأنبياء الكرام عليهم السلام الحاملون لواء تصديقهم الذي هو معجزاتهم الباهرة.. وينبئ

بها مائة وأربعة وعشرون مليونا من الأولياء الصالحين، يصدّقون ما أخبر به أولئك الأنبياء الكرام، ويشهدون لهم على الحقيقة نفسها بالكشف والذوق والشهود.. وينبئ بها ما لا يعد ولا يحصى من العلماء المحققين، يثبتون ما أخبر به أولئك الأنبياء والأولياء بأدلتهم العقلية القاطعة البالغة درجَة علم اليقين، وبها يصل إلى تسع وتسعين بالمئة من الثبوت والجزم[1].. فالجميع يقررون: أن النجاة من الإعدام الأبدي، والخلاصَ من السجن الانفرادي، وتحويلَ الموت إلى سعادة أبدية، إنما تكون بالإيمان بالله وطاعته ليس إلّا.

نعم، لو سار أحدُهم في طريقٍ غيرَ مكترث بقولِ مخبرٍ عن وجود خطرٍ مهلكٍ، ولو باحتمال واحد من المائة، أليس ما يحيط به من قلق وخوف عما يتصوره ويتوقعه من مخاطر كافيا لقطع شهيته عن الطعام؟ فكيف إذن بإخبار مئات الآلاف من الصادقين المصدّقين، إخبارا يبلغ صدقُهم مائة في المائة، واتفاقهم جميعا على أن الضلالة والجحود يدفعان الإنسان إلى مشنقة القبر وسجنه الانفرادي الأبدي -كما هو ماثل أمامكم- وأن الإيمان والعبادة بيقين مائة في المائة، كفيلان برفع أعواد المشنقة وإغلاق باب السجن الانفرادي، وتحويل القبر إلى باب يُفتح إلى قصور مزيّنة

(١) أحد أولئك رسائل النور كما يراها الجميع. (المؤلف)

عامرة بالسعادة الدائمة، وكنوز مليئة لا تنضب.. علما أنهم مع إخبارهم هذا يدلّون على أماراتها ويظهرون آثارها.

والآن أوجه إليكم هذا السؤال:

- تُرى ما موقف الإنسان البائس، ولا سيما المسلم، إزاء هذه المسألة الجسيمة الرهيبة؟ هل يمكن أن تزيل سلطنةُ الدنيا كلها مع ما فيها من متع ولذائذ، ما يعانيه الإنسان من اضطراب وقلق في انتظار دوره في كل لحظة للدخول إلى القبر، إن كان فاقدا للإيمان والعبادة؟.

ثم إنّ الشيخوخة والمرض والبلاء، وما يحدث من وفيات هنا وهناك، تقطّر ذلك الألم المرير إلى نفس كل إنسان، وتُنذره دوما بمصيره المحتوم. فلا جَرَمَ أنّ أولئك الضالين وأرباب السفاهة والمجون سيتأجج في قلوبهم جحيم معنوي، يعذبهم بلظاه حتى لو تمتعوا بمباهج الدنيا ولذائذها، بَيْدَ أنّ الغفلة وحدَها هي التي تحول دون استشعارهم ذلك العذاب الأليم.

فما دام أهل الإيمان والطاعة يرون القبر الماثل أمامَهم بابا إلى رياض سعادة دائمة ونعيم مقيم، بما مُنحوا من القدر الإلهي من وثيقة تُكسبهم كنوزا لا تَفْنى بشهادة الإيمان، فإنّ كُلا منهم سيشعر لذة عميقة حقيقية راسخة، ونشوة روحية لدى انتظاره كلَّ لحظة مَن يناديه قائلا:

تعالَ خُذْ بطاقتك! بحيث إنّ تلك النشوة الروحية لو تجسمت لأصبحت بمثابة جنة معنوية خاصة بذلك المؤمن، بمثل ما تتحول البذرة وتتجسم شجرةً وارفة.

ولما كان الأمر هكذا، فالذي يدَعُ تلك المتعة الروحية الخالصة لأجْلِ لذةٍ مؤقتة غيرِ مشروعة منغصةٍ بالآلام -كالعسل المسموم- بدافع من طيش الشباب وسفاهته؛ سينحطُّ إلى مستوى أدنى بكثير من مستوى الحيوان.. بل لا يبلغ أن يكون حتى بمثل الملاحدة الأجانب أيضا؛ لأن مَن يُنكر منهم رسولَنا الكريم ﷺ فقد يؤمن برسل آخرين، وإن لم يؤمن بالرسل كلِّهم، فقد يؤمن بوجوده تعالى. وإن لم يؤمن بالله، فقد تكون له من الخصال الحميدة ما يريه الكمالات. بينما المسلم لم يعرف الرسل الكرام ولا آمن بربه ولا عرف الكمالات الإنسانية إلّا بوساطة هذا النبي الكريم ﷺ لذا مَن يتركْ منهم التأدّبَ بتربيته المباركة ويُحِلَّ رِبقتَه عن أوامره فلا يعترفُ بنبيٍ آخر، بل يجحد حتى بالله سبحانه وتعالى. ولا يستطيع أن يحافظ على أسس الكمالات الإنسانية في روحه؛ ذلك لأنّ أصولَ الدين وأسسَ التربية التي جاء بها الرسول الكريم ﷺ هي من الرسوخ والكمال ما لا يمكن أن يَحْرِزَ نورا ولا كمالا قط مَن يَدَعُها ويتركها،

بل يَحكُم عليه بالتردِّي والسقوط المطلق، إذ هو ﷺ خاتمُ النبيين وسيدُ الأنبياء والمرسلين، وإمامُ البشرية بأكملها، في الحقائق كلِّها، بل هو مدارُ فخرِها واعتزازِها، كما أثبَتَ ذلك إثباتا رائعا على مدى أربعةَ عشرَ قرنا.

فيا مَن فُتنتم بزهرة الحياة الدنيا ومتاعِها، ويا مَن يبذلون قُصارى جهدهم لضمان الحياة والمستقبل بالقلق عليهما! أيها البائسون!

إن كنتم ترومون التمتع بلذة الدنيا والتنعم بسعادتها وراحتها، فاللذائذ المشروعة تُغنيكم عن كل شيء، فهي كافية ووافية لتلبية رغباتكم وتطمين أهوائكم. ولقد أدركتم -مما بيّناه آنفا- أن كل لذة ومتعة خارج نطاق الشرع فيها ألفُ ألمٍ وألم، إذ لو أمكن عرض ما سيقع من أحداث مقبلة بعد خمسين سنة مثلا، على شاشة الآن مثلما تُعرض الأحداث الماضية عليها لَبَكى أربابُ الغفلة والسفاهة بكاءً مرا أليما على ما يضحكون له الآن.

فمن كان يريد السرورَ الخالصَ الدائمَ والفرحَ المقيمَ في الدنيا والآخرة، عليه أن يقتدي بها في نطاق الإيمان من تربية محمد ﷺ.

* * *

على الشاشة المعنوية

كنت جالساً - يوماً - أمام نافذة في سجن «أسكي شهر». النافذة تطل على مدرسة إعدادية البنات. كانت فتيات المدرسة يضحكن ويلعبن في فرح ونشوة. فما إن رأيتهن على تلك الحالة حتى تحولن في نظري إلى حور[1] جهنم في جنة تلك الدنيا، إذ تراءى لي فجأة ما سيؤول إليه حالهن بعد خمسين سنة فأخذتْ ضحكاتهن ومسرّاتهن تنقلب أمامي إلى صور البكاء الأليم والحزن الشديد.

انكشفت لي من هذه الحالة الحقيقة الآتية:

لقد شاهدت في شاشة خيالية ومعنوية حالتهن لما بعد خمسين سنة. وقد أصبحت خمسون فتاة ضاحكة الآن يعذبن في القبر، وقد رمّت أجسادهن، والعشر الباقيات أصبحن عجائز شمْط في السبعين من عمرهن، تبعث دمامتهن على التقزز والاشمئزاز.

لم أتمالك نفسي أمام هذا المنظر فأجهشتُ بالبكاء على حالهن.

---

(١) تشبيه لطيف، إذ أنهن جميلات لطيفات، إلا أنهن يرمين بأنفسهن في جهنم بعدم التزامهن أوامر المولى «سبحانه وتعالى». (المترجم)

فتراءت لي فتنة آخر الزمان وهي أشد فتنة على المؤمنين. فتنة النساء المغرية المنبعثة من قلة الحياء. حيث تسلب وقاحتُهن إرادة المرء وترمي به إلى جحيم السفاهة كما ترمي الفراشةُ نفسها في النار، إذ تجعلهُ يفضّل دقيقة واحدة من متعة حياة دنيوية فانية على سنوات مديدة من متع الحياة الباقية الخالدة.

ولقد شعرت بنموذج مؤثر لتلك الفتنة، وأنا أشاهد - يوماً - ما يجري في الشارع، فأشفقت على حال الشبان كثيراً. وقلت: يا لهؤلاء المساكين، كيف سينقذون أنفسهم من نار هذه الفتنة ولظى إغرائها القوي؟

وبينما كنت مُطلقاً عنان الخيال وغارقاً في هذا التأمل إذا بالشخصية المعنوية لموقد هذه الفتنة ومسجر نارها، ومعلمها والداعي إليها تتجسد أمامي.

قلت له وللملحدين الذين يتلقون التعليمات والدروس منه:

أيها الشقي الذي يضحي بدينه في سبيل التمتع بحور جهنم، السفه والضلالة، ويرضى لنفسه الإلحاد والمروق من الدين إِشباعاً لرغبات النفس الأمارة بالسوء. فيا من تتشبث بالحياة الدنيا لحد عبادتها وتفر من الموت، بل تنفر

من أن يُذكر أمامك القبر، فتولّي وجهك شطر الردّة من الدين. إعلم جازما:

أن دنياك العظيمة هذه، وكل ما مضى قبل هذه الساعة، وكل ما سيأتي بعد هذه الدقيقة، والكائنات بأسرها، وماضيك ومستقبلك، ومَن مضى من أبناء جنسك ونوعك، ومن سيأتي من المخلوقات والأجيال، والعوالم الراحلة والأمم الغابرة، والناس المقبلين والطوائف القادمة. كل هؤلاء معدومون. أموات غير أحياء .. بسبب ضلالتك.

ولكن لأنك مرتبط عقلاً وإنسانيةً بجميع هذه الدنى السيارة والكائنات السيالة، ينزل على رأسك باستمرار مطر السوء من الآلام الشديدة التي تنجم من التفكير في مصير أموات تملأ الدنيا كلها، بل أموات لا حدّ لهم ولا عدّ. كل ذلك من جراء ضلالتك وجحودك، حتى أنها تلتهم قلبك إن كان لك شعور، وتحرق روحك إن كنت ذا روح، وتغرق عقلك في بحر الأحزان إذا كان لك عقل لم يخبُ.

نعم! إن كانت نشوة السفاهة وحمأة اللذة - في أقل من ساعة - تكافئ كل هذه الهموم والأحزان غير المتناهية فدُم عليه وامضِ في لهوك ومجونك.وإلا فعُد إلى رشدك و استمع بقلب شهيد درس القرآن الكريم، واستبدل بلذةٍ

جزئية فانيةٍ لا تستغرق دقيقة لذائذ كلية دائمة[1] لتنجو من ذلك الجحيم المعنوي ولتدخل بفضل الإيمان جنة معنوية في هذه الدنيا أيضا ولتستمتع بسعادة الحياة. وإياك أن تقول: سأمضي حياتي وأعيش كالحيوانات! لأن الماضي والمستقبل محجوبان عن الحيوان. فهما في حكم الغيب بالنسبة له. فلقد أنقذه الحكيم الرحيم من آلام لا حدّ لها بحَجْب الغيب عنه، حتى أن الدجاجة المخلوق للذبح لا يستشعر ألماً ولا حزناً إلاّ أثناء مرور السكين على عنقه، وسرعان ما يزول أثر ذلك

(١) نعم! إن الإيمان يمكنه أن يذيق – معنىً – لذائذ الجنة ونعيمها في هذه الدنيا. فانظر إلى هذه الفائدة من بين مئاتٍ من فوائده ولذائذه المنورة: هب أنك قائم على رأس من تحبه كثيراً وهو يعاني سكرات الموت. كم يبلغ سرورك وفرحك إذا قدم طبيبٌ حاذق – كأنه لقمان الحكيم أو الخضر عليهما السلام – وكشف حال المحتضر، وإذا به ينجو من قبضة الموت، ويصبح سالماً صحيحاً. تذكّر موقفك هذه وقس عليه مدى سرورك العظيم!

فالإيمان كذلك، يبعث فيك السرور والفرح بقدر بعث جميع الأموات الذين تتعلق بهم برابطة. إذ إن ملايين ممن يرقدون في مقبرة الماضي هم أحباؤك. فنور الإيمان يبعثهم جميعاً أحياءً وينقذهم من الفناء والعدم والموت النهائي. وإذا بهم قيام ينظرون يقولون: «لسنا أمواتاً ولا نموت أبداً».

فبفضل الإيمان وبعثه أولئك الأحباب حلت نشوةُ الوصال ومسرات لا نهاية لها محل تلك الآلام التي لا تحد والناشئة من فراقات لا تحد.

هذا مثال لما يمنحه الإيمان في هذه الدنيا من أفراح ومسرات؛ فيدل على أن: «الإيمان بذرة حية لو تحولت جسماً وتسنبلت لأذاقت أهله لذائذ الجنة ومحاسنها وسيذيقهم فعلا». (المؤلف)

الألم وينجو منه أيضاً. أي أن رحمة الخالق الحكيم الواسعة ورأفته الكاملة وشفقته على الخلق تتجلّى بعدم إعلام الغيب وهي تتجلى بوضوح تام في الحيوانات البريئة.

ومن هنا .. فأنت لا تستطيع أن تستمتع أبداً بلذة غير مشروعة بمثل ما يستمتع به الحيوانات بل إلى أسفل منها بألوف الدركات. ذلك لأن عقلك يشعر ويرى ما هو غيباً لدى الحيوان، فيتألم منه. فأنت محروم من الراحة التامة التي يشعر بها الحيوان من ستر الغيب أمامه كلياً.

ثم إن ما هو مدار فخرك واعتزازك من الأخوّة والاحترام والحمية وأمثالها من الخصال الحميدة، تصبح مصطنعة، متكلفة، موقتة، مزيفة، واهية، جزئية، لأنها انحصرت في زمان ضيق جداً، كساعةٍ في زمن لا حدود له، واقتصرت على مكان ضيق محدود كموضع إصبعٍ من صحراء شاسعة. لذا تصغر لديك إنسانيتك ومُثلك وكمالاتك بل قد تتلاشى وتصبح أثراً بعد عين.

ولكن أخوة أهل الإيمان واحترام بعضهم لبعض والمحبة التي تشدهم، تتعالى وتسمو بسمو الإيمان نفسه.

فتعظُم بدورها إنسانية المؤمن وكمالاته بالنسبة نفسها، ذلك لأن تلك الخصال تتسع إلى آماد الماضي وأبعاد المستقبل دون أن تنحصر في مكان وزمن محددين.

أما سبب تفوقك في أمور الدنيا فمردّه؛ أنك أشبه ما تكون بذلك اليهودي الصائغ المعتوه الذي دفع ثمن الألماس لشراء قطع زجاجية ظناً منه أنها الألماس. فأنت كذلك تبذل ما تستحقه الحياة الدائمة الواسعة من جهدٍ في زمان قصير جداً وتحصره فيه، فلا عجب أن يحالفك التوفيق في ذلك النطاق المحدود، إذ تتوجه إلى الدنيا بكل ما فيك من حرص شديد ومحبة عارمة وانتقام شديد - يسع زمن سنة واحدة - وتصرف هذه المشاعر كلها في دقائق معدودة، فلا غرابة إذاً أن تتفوق موقتاً على أهل الدين. وحيث ان كلاً من عقلك وروحك وقلبك ومشاعرك قد ترك وظائفه الأساسية السامية من جراء الانهماك والمشاركة في أمور النفس الأمارة الدنيئة وتلبية رغباتها وأهوائها الخبيثة، فلا عجب أن تتفوق على المؤمنين في الدنيا، ولا غرابة أن تبدو في الظاهر أكثر بهجة منهم، حيث ان عقلك وقلبك وروحك قد تدنت دناءة في منتهى السقوط، بل مسخت مسخاً كلياً فانقلبت إلى خدمة رذالة الهوى والنفس الدنيئة.

فمن هنا، لا شك أن تكون لك موفقية مؤقتة تكسبك نار جهنم، وتكسب المؤمنين المظلومين الجنة الخالدة.

* * *

[مسألة مهمة أُخطرت على القلب فجأة]

تنبيه

إنَّ دأب «رسائل النور» في الخطاب هو الرحمة والشفقة والرأفة، لذا يرتبط معها النساءُ اللاتي يتميزن بالشفقة والحنان أكثر من الرجال. أما هذا البحث فإنه موجه إلى اللاتى يُقلدن الأجنبيات تقليداً أعمى، لذا تبدو فيه الشدة في الكلام، وليس ذلك إلّا لتنبيه الغافلات وإيقاظهن. أما أخواتُنا رائدات الشفقة والحنان فنرجو ألّا تزعجهن شدة الكلام.

يُفهم من روايات الأحاديث النبوية أن النساء وفتنتهن ستؤدى أخطرَ دور وأرهبَه في فتنة آخر الزمان.

نعم، كما تنقل لنا كتب التاريخ: أنه كانت في القرون الأولى طائفةٌ من النساء اشتهرن بالشجاعة وحمل السلاح يعرفن بـ«نساء الأمازون» حتى تشكلت منهن فرقة عسكرية اقتحمت حروباً ضارية، كذلك في عصرنا هذا، لدى تصدى ضلالة الزندقة للإسلام وحربها معه فإن أرهب فرقة من الفرق المُغيرة على الإسلام والتي تسير وفق مخطط النفس الأمّارة بالسوء، وسلَّمت قيادَها وإمرتها إلى الشيطان، هي طائفة من النساء الكاسيات

العاريات اللائى يكشفن عن سيقانهن ويجعلنها سلاحاً قاسياً جارحاً ينـزل بطعناته على أهل الإيمان! فيغلقن بذلك بابَ النكاح ويفتحن أبواب السفاح، إذ يأسرن بغتة نفوسَ الكثيرين ويجرحنهم جروحاً غائرة في قلوبهم وأرواحهم بارتكابهم الكبائر، بل ربما يصرعن قسماً من تلك القلوب ويقضين عليها.

وإنه لعقاب عادل لهن، أن تصبح تلك السيقانُ المدججة بسلاح الفتنة الجارح حطبَ جهنم وتحرق في نارها أول ما يحرق، لِما كن يكشفنها لبضع سنوات أمام من يُحرم عليهن.

فضلاً عن ذلك فإنهن يفقدن الزوج المناسب لهن، بل لا يستطعن الحصول عليه وهن في أمس الحاجة إليه بحكم الفطرة والخلقة، لِما كنّ قد ضيّعن الثقة والوفاء في الدنيا، بل يصبحن في حالة من الابتذال وفقدان الرعاية والأهمية -نتيجة عدم الرغبة في النكاح وعدم الرعاية لحقوقه- أن يكون رجل واحد قيّماً على أربعين من النساء، كما ورد ذلك في الحديث الشريف.[1]

---

(١) عن أنس رضي الله عنه قال: لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكم أحد بعدى، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الزنا وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيّمُ الواحد**) البخاري - كتاب العلم - باب رفع العلم وظهور الجهل.

فما دامت الحقيقة هكذا.. وما دام كلُّ جميل يحب جمالَه، ويحاول جهده المحافظة عليه، ولا يريد أن يُمَسّ بسوء.. وما دام الجمال نعمةً مهداةً، والنعمة إن حُمدَ زادت وإن قوبلت بالنكران تغيّرت.. فلاشك أن المرأة المالكة لرُشدها ستهرب بشدة وبكل ما لديها من قوة من أن تجعل جمالَها وسيلة لكسب الخطايا والذنوب وسَوق الآخرين إليها.. وستفرّ حتماً مَنْ أن تجعل جمالها يتحول إلى قبح دميم وجمال منحوس مسموم.. وستنهزم بلا شك من أن تجعل بالنكران تلك النعمة المهداة وتصبح مدار عذاب وعقاب.

لذا ينبغي للمرأة الحسناء استعمال جمالها على الوجه المشروع ليظل ذلك الجمال الفاني خالداً دائماً بدلاً من جمال لا يدوم سوى بضعَ سنين، فتكون عندئذ قد أدت شكرَ تلك النعمة. وإلّا ستتجرع الآلام والعذاب في وقت شيخوختها، وستبكي وتندب على نفسها يائسة نادمة لشدة ما ترى من استثقال الآخرين لها وإعراضهم عنها.

أما إذا زُين ذلك الجمال بزينة آداب القرآن الكريم وروعي الرعاية اللائقة ضمن نطاق التربية الإسلامية، فسيظل ذلك الجمالُ الفاني باقياً -معنىً- وستمنح المرأة

جمالاً هو أجمل وأبهى وأحلى من جمال الحور العين في الجنة الخالدة كما هو ثابت في الحديث الشريف.[1] فلئن كانت لتلك المرأة مسكة من عقل، فلن تدع هذه النتيجة الباهرة الخالدة قطعاً أن تضيع منها.



(١) في الباب أحاديث كثيرة نذكر منها: عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: (في حديث طويل) قلت: يا رسول الله أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة. قلت: يا رسول الله. وبِمَ ذلك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله عز وجل ألبس الله عز وجل وجوههن النور وأجسادهن الحرير، بيض الألوان، خضر الثياب، صفر الحلي... الخ الحديث.. الطبراني، المعجم الكبير والأوسط وهذا لفظه (عن الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٥٣٧)

حوار مع فريق من الشباب

جاءَني -ذات يوم- فريق من الشباب، يتدفقون نضارةً وذكاءً، طالبين تنبيهاتٍ قويةً وإرشاداتٍ قويمةً تقيهم من شرورٍ تتطاير من متطلبات الحياة ومن فتوّة الشباب ومن الأهواء المحيطة بهم.

فقلت لهم بمثل ما قلته لأولئك الذين طلبوا العون من رسائل النور:

اعلموا أن ما تتمتعون به من ربيع العمر ونضارة الحياة ذاهب لا محالة، فإن لم تلزموا أنفسكم بالبقاء ضمن الحدود الشرعية، فسيضيع ذلك الشباب ويذهب هباءً منثورا، ويجرّ عليكم في الدنيا وفي القبر وفي الآخرة بلايا ومصائبَ وآلاما تفوق كثيرا ملذات الدنيا التي أذاقكم إياها..

ولكن لو صرفتم ربيع عمركم في عِفّة النفس وفي صَوْنِ الشرف وفي طاعة ربكم بتربيته على الإسلام، أداءً لشكر الله تعالى على ما أنعَمَ عليكم من نعمة الفتوة والشباب، فسيبقى ويدوم ذلك العهدُ معنىً، وسيكون لكم وسيلة للفوز بشباب دائم خالد في الجنة الخالدة.

فالحياة، إن كانت خاليةً من الإيمان، أو فَقَدَ الإيمانُ

تأثيرَه فيها لكثرة المعاصي، فإنها مع متاعها ولذتها الظاهرية القصيرة جدا تذيق الآلام والأحزان والهموم أضعافَ أضعافِ تلك المتع والملذات، ذلك لأن الإنسان -بما مُنح من عقل وفكر- ذو علاقة فطرية وثيقة بالماضي والمستقبل فضلا عما هو عليه من زمان حاضر حتى إنه يتمكن من أن يذوق لذائذ تلك الأزمنة ويشعر بآلامها، خلافا للحيوان الذي لا تعكر صَفْوَ لذتِه الحاضرةِ الأحزانُ الواردة من الماضي ولا المخاوفُ المتوقعة في المستقبل، حيث لم يمنح الفكر.

ومن هنا فالإنسان الذي تَردَّى في الضلالة وأطبقتْ عليه الغفلةُ تفسد متعتُه الحاضرة بما يردُه من أحزان من الماضي، وما يرده من اضطرابٍ من القلق على المستقبل. فتتكدر حياتُه الحاضرة بالآلام والأوهام، سيَّما الملذاتُ غير المشروعة، فهي في حكم العسل المسموم تماما.

أي إنّ الإنسان هو أدنى بمائة مرة من الحيوان من حيث التمتع بملذات الحياة. بل إن حياة أرباب الضلالة والغفلة، بل وجودهم وعالَمهم، ما هو إلّا يومُهم الحاضر، حيث إنّ الأزمنة الماضية كلَّها وما فيها من الكائنات معدومة، ميتة، بسبب ضلالتهم، فترِدهم من هناك حوالكُ الظلمات..!

أما الأزمنة المقبلة فهي أيضا معدومة بالنسبة إليهم،

وذلك لعدم إيمانهم بالغيب. فتملأ الفراقات الأبدية -التي لا تنقطع- حياتَهم بظلمات قاتمة، ما داموا يملكون العقل جاحدين بالبعث والنشور.

ولكن إذا ما أصبح الإيمان حياةً للحياة، وشعّ فيها من نوره، استنارت الأزمنة الماضية واستضاءت الأزمنة المقبلة، وتجدان البقاءَ وتمدان روحَ المؤمن وقلبَه من زاوية الإيمان، بأذواق معنوية سامية وأنوار وجودية باقية، بمثل ما يمدّهما الزمن الحاضر.

هذه الحقيقة موضحة توضيحا وافيا في «الرجاء السابع» من رسالة «الشيوخ» فليراجع.

هكذا الحياة.. فإن كنتم تريدون أن تستمتعوا بالحياة وتلتذوا بها فأحيوا حياتكم بالإيمان وزيّنوها بأداء الفرائض، وحافظوا عليها باجتناب المعاصي.

أما حقيقة الموت التي تُطلعنا على أهوالها، الوفياتُ التي نشاهدها كل يوم، في كل مكان، فسأبينها لكم في مثال، مثلما بينتها لشبان آخرين من أمثالكم .

تصوروا ههنا -مثلا- أعوادا نُصبت أمامكم للمشنقة، وبجانبها دائرة توزع جوائزَ سخيةً كبرى للمحظوظين.. ونحن الأشخاص العشرة هنا سنُدعى إلى هناك طوعا

أو كرها. ولكن لأنّ زمان الاستدعاء مخفي عنّا، فنحنُ في كل دقيقة بانتظار مَن يقول لكلٍ منا: تعالَ.. تسلّم قرار إعدامك، واصعد المشنقة!. أو يقول: تعالَ خذ بطاقة تربحك ملايين الليرات الذهبية.!

وبينا نحن واقفون منتظرون، إذا بشخصين حضرا لدى الباب. أحدهما امرأة جميلة لعوب شبه عارية تحمل في يدها قطعة من الحلوى، تقدّمها إلينا تبدو أنها شهية، ولكنها مسمومة في حقيقتها.

أما الآخر فهو رجل وقور كيّس -ليس خِبا ولا غِرّا- دخل على إثْرِ تلك المرأة وقال: لقد أتيتكم بِطَلْسِمٍ عجيب، وجئتكم بدرس بليغ، إذا قرأتم الدرس ولم تأكلوا من تلك الحلوى، تنجون من المشنقة، وتتسلَّمون -بهذا الطلسم- بطاقة تلك الجائزة الثمينة.. فها أنتم أولاء ترون بأم أعينكم أن مَن يأكل تلك الحلوى، يتلوّى من آلام البطن حتى يصعد المشنقة.

أما الفائزون ببطاقة الجائزة، فمع أنهم محجوبون عنّا، ويبدون أنهم يصعدون منصّة المشنقة إلّا أنّ أكثر من ملايين الشهود يخبرون بأنهم لم يُشنَقوا، وإنما اتخذوا أعواد المشنقة سُلّما للاجتياز بسهولة ويسر إلى دائرة الجوائز.

فهيا انظروا من النوافذ، لتروا كيف أنّ كبار المسؤولين المشرفين على توزيع تلك الجوائز ينادون بأعلى صوتهم قائلين:

«إنّ أصحاب ذلك الطِّلْسم العجيب قد فازوا ببطاقة الجوائز.. اعلموا هذا يقينا كما رأيتم بعين اليقين أولئك الذاهبين إلى المشنقة، فلا يساوِرنّكم الشكُّ في هذا، فهو واضح وضوح الشمس في رابعة النهار».

وهكذا على غرار هذا المثال:

فإنّ مُتع الشباب وملذاته المحظورةَ شرعا كالعسل المسموم.. وَغَدَا الموتُ لدى الذي فقد بطاقة الإيمان التي تربحه السعادة الأبدية كأنّه مشنقة، فينتظر جَلّاد الأجل الذي يمكن أن يحضر كل لحظة -لخفاء وقته عنا- ليقطع الأعناق دون تمييز بين شاب وشيخ.. فيرديه إلى حفرة القبر الذي هو باب لظلماتٍ أبدية كما هو في ظاهره..

ولكن إذا ما أعرض الشاب عن تلك الملذات المحظورة، الشبيهة بالعسل المسموم وضرب عنها صفحا، وبادر إلى الحصول على ذلك الطلسم القرآني وهو الإيمان وأداء الفرائض، فإنّ مائةً وأربعةً وعشرينَ ألفا من الأنبياء عليهم السلام، وما لا يُعدُّ ولا يُحصى من الأولياء الصالحين والعلماء العاملين يخبرون ويبشّرون بالاتفاق مظهرين

آثار ما يخبرون عنه بأنّ المؤمن سيفوز ببطاقة تكسبه كنوز السعادة الأبدية.

حاصل الكلام: إن الشباب سيذهب حتما وسيزول لا محالة؛ فإن كان قد قضي في سبيل الملذات ونشوة الطيش والغرور؛ فسيورث آلاف البلايا والآلام والمصائب الموجعة سواء في الدنيا أو الآخرة.

وان كنتم ترومون أن تفهموا بأن أمثال هؤلاء الشباب سيؤول حالُهم في غالب الأمر إلى المستشفيات، بسبب تصرفاتهم الطائشة وإسرافاتهم وتعرضهم لأمراض نفسية.. أو إلى السجون وأماكن الإهانة والتحقير، بسبب نـزواتهم وغرورهم.. أو إلى الملاهي والخمّارات بسبب ضِيْقِ صدورهم من الآلام والاضطرابات المعنوية والنفسية التي تنتابهم.. نعم.. إن شئتم أن تتيقنوا من هذه النتائج فاسألوا المستشفياتِ والسجونَ والمقابرَ.. فستسمعون بلا شك من لسان حال المستشفيات الأنّات والآهات والحسرات المنبعثة من أمراض نَجَمَتْ من نـزوات الشباب وإسرافهم في أمرهم.. وستسمعون أيضا من السجون صيحات الأسى وأصوات الندم وزفرات الحسرات يطلقها أولئك الشبان الأشقياء الذين انساقوا وراءَ طيشهم، وغرورهم فتلقّوا صفعة التأديب لخروجهم على الأوامر الشرعية،

وستعلمون أيضا أنّ أكثرَ ما يُعذّب المرءُ في قبره -ذلك العالم البرزخي الذي لا تهدأ أبوابُه عن الانفتاح والانغلاق لكثرة الداخلين فيه- ما هو إلّا بما كسبت يداه من تصرفات سيئة في سنيِّ شبابه، كما هو ثابت بمشاهدات أهل كشف القبور، وشهادة جميع أهل الحقيقة والعلم وتصديقهم.

واسألوا إن شئتم الشيوخ والمرضى الذين يمثلون غالبية البشرية، فستسمعون أنّ أكثريتهم المطلقة يقولون:

«وا أسَفَى على ما فات! لقد ضيعنا ربيعَ شبابنا في أمور تافهة، بل في أمور ضارة! فإياكم إياكم أن تُعيدوا سيرتَنا، وحَذارِ حَذارِ أن تفعلوا مثلَنا!».

ذلك لأنّ الذي يُقاسي سنواتٍ من الغمِّ والهمِّ في الدنيا، والعذابَ في البرزخ، ونارَ سَقَرٍ في الآخرة، لأجل تمتع لا يدوم خمسَ أو عَشْرَ سنوات من عمر الشباب بملذات محظورة.. غير جدير بالإشفاق، مع أنّه في أشدّ الحالات استدرارا للشفقة والرثاء؛ لأنّ الذي يرضى بالضرر وينساق إليه طوعا، لا يستحق الإشفاق عليه ولا النَظر إلى حاله بعين الرحمة، وِفْقَ القاعدة الحكيمة: «**الراضي بالضرر لا يُنظر له**».[1]

حفظنا الله وإياكم من فتنة هذا الزمان المغرية ونجّانا من شرورها.. آمِينَ

(١) الإمام الرباني، المكتوبات ج٢ (المكتوب ٤٩):
«**الراضي بالضرر لا يستحق النظر**»

القضية الكبرى

سألنا الأستاذ يوماً:

« لقد مرّ عامان على نشوب الحرب العالمية الثانية، هذه الحرب الوثيقة الصلة بمصير العالم الإسلامي، ومع ذلك لم تسألونا، ولا الأخ «أمين» - القائم بخدمتكم يومياً - عن أمرها ولو لمرة واحدة، ولم تعيروا لها أهمية تُذكر حتى في أشد أيامها ضراوة. فهل هناك حقيقة أخرى أخذت بمجامع فكركم واهتمامكم هي أعظم من الحادثة الكبرى حتى جعلتْها غير ذات بال لديكم، أم ترون أن الانشغال بها والاهتمام بها فيه إثم وضر؟»

هذا هو مضمون ما سألنا أستاذنا عنه. وكان جوابه الآتي:

الجواب:

نعم! إن هناك حقيقة أعظم وأجلّ من هذه الحرب الطاحنة، هي التي تهيمن على الوجود، فتبقى هذه الحرب العظمى تافهة إزاءها؛ إذ بينما تتنافس دولتان كبيرتان، وتطرحان قضاياهما من أجل السيطرة على الكرة الأرضية، وأخذَ أعظم دينين سماويين يترافعان للمصالحة أمام محكمة

الصلح، في الوقت الذي تستعر النيران الصراع العنيف بين تيار الإلحاد الجارف والأديان السماوية، وتتقاضى طبقات الاشتراكيين وطوائف البرجوازية أمام محكمتهما.. نجد في الميدان قضية أجلّ من جميع هذه القضايا، وحقيقة أسمى من كلها، بحيث ان ما يصيب منه شخصاً واحداً هو أعظم من الحرب الكونية هذه، تلك القضية هي:

إن أمام كل مؤمن بل كل إنسان قضية كبرى في وقتنا الراهن، وهي: كسب قصور مزينة في جنات وارفة تسع الدنيا كلها أو خسارتها كلياً. بمعنى أن أمام كل إنسان قضية عظيمة بحيث لو كان مالكاً لثروات الإنكليز والألمان وقوتهما، وكان راشداً مالكاً لعقله، لضحّى بجميع ما يملك لكسب هذه القضية العظيمة. إذ لا شك أن من يصرف جهده واهتمامه لغير هذه القضية يعدّ مجنوناً سخيف العقل.

بل إن شدة المخاطر المحدقة بتلك القضية قد بلغت حداً بحيث واحداً من كل أربعين شخصاً - في موضع ما - ممن يتسلمون أمر تسريحهم من الحياة من يد الأجل، فيغادرون الحياة، قد استطاع أن يفوز بتلك القضية، أما التسعة والثلاثون الباقون فقد خسروها، وذلك بناء على ما شاهده أحد أرباب الكشف.

وإذا ما وجد محامٍ يستطيع أن يكسب هذه القضية، وله خبرة عشرين سنةً - وقد كسبها لثمانية أعشار من الناس المؤمنين - فلا ريب أن كل من يملك مسكة من العقل سيودع إليه مهمة كسب القضية التي أخذت جلّ اهتمامه. وأحد أولئك المحامين عن تلك القضية الكبرى، وربما أسبقهم هو «رسائل النور» التي ترشحت من الإعجاز المعنوي للقرآن الكريم والتي نبعت وتولدت منه، وليس أدلّ على ذلك من ألوف الشهود الذين كسبوا تلك القضية بوساطتها.

نعم! لقد ثبت قطعاً أن كل إنسان قد بُعث إلى هذه الأرض لأداء مهمة، وهو ضيف مكرم في حياة فانية عليها، وإن ماهيته متوجهة إلى التنعم بحياة باقية خالدة.

وإن كل إنسان يشعر أيضاً بأن القلاع الحصينة التي يحتمي بها لإنقاذ حياته الأبدية قد تعرضت للتصدع والتزعزع في هذا الوقت، لذا فإنه مع اضطراره إلى ترك هذه الدنيا ومن فيها من أحبائه تركاً لا رجعة له، يجد نفسه أمام قضية جليلة هي: كسب أو خسران ملكٍ عظيم أوسع من الدنيا كلها وأفضل وأكمل منها.

فإن لم يكن قد حصل على شهادة الإيمان ووثيقة

الاعتقاد الصادق فسيخسر تلك القضية!. تُرى هل هناك شئ في الوجود يمكن أن يعوّض ذلك الخسران المبين؟!.

وانطلاقا من هذه الحقيقة؛ فإن إيفاء هذه المهمة الجليلة حقها لا يكفيها عقلي وعقول إخواني ولو تضاعف كل منها مئة مرة، لذا فالنظر والاهتمام بأمور أخرى غيرها ليس إلاّ من الفضول ومما لا يعنينا بشيء. إلاّ أن هناك أمراً وهو: أن قسماً من طلاب النور قد اضطروا إلى النظر إلى تلك الأمور دون رغبة منهم، دفاعاً عن حقوقهم أمام تجاوز عدد من الحمقى - الذين تهمهم قضايا أخرى - على حقوقنا دون داع أو سبب، وتطاولهم علينا[1].

ثم إن الالتفات إلى قضايا وصراعات خارجة عن نطاق هذه القضية الحقيقية العظمى والاهتمام بها قلباً وفكراً أمر ضار جداً. وذلك، لأن من يولي اهتمامه إلى مثل هذه الميادين السياسية الواسعة المثيرة وينشغل بها، ينسى نفسه أنه مأمور بالعمل في نطاق دائرة محدودة وقصير الأمد. فيتخلف أو يفتر عن القيام بمهمات جليلة أنيطت به ضمن تلك الدائرة الضيقة.

ثم إن من يصرف اهتمامه في متابعة أحداث تلك الدوائر السياسية الواسعة الجذابة قد ينجرف في تيارها.

(١) يشير إلى دفاعه أمام المحاكم.

ويظل موضع اتهام على أنه لم يفِ مهمته حق الوفاء رغم أنه لم يفقد بعدُ سلامة قلبه وحسن نيته واستقامة فكره وإخلاصه في العمل، حتى إنني عندما اتهموني في المحكمة - بهذا الشأن - قلت لهم:

« إن حقيقة الإيمان والقرآن التي هي كالشمس ساطعة لا يمكن أن تكون تابعة لجاذبية أضواء الأرض الموقتة ولا تكون وسيلة لها، فإن من يعلم تلك الحقيقة حق العلم لا يجعلها قط أداة للكائنات بأسرها، ناهيك أن يجعلها وسيلة لأحداث الدنيا المتقلبة الزائلة».

وبهذا ألزمتهم الصمت والسكوت.

« وهكذا انتهى جواب أستاذنا ونحن أيضاً نصدقه بكل ما أوتينا من قوة »

طلاب النور

* * *

حاشية المقام الثاني من الكلمة الثالثة عشرة

رسائل إلى المسجونين

بِاسمِهِ سُبحَانَهُ

إن المسجونين هم في أمسّ الحاجة إلى ما في «رسائل النور» من سُلْوان حقيقي وعزاءٍ خالص. ولا سيما أولئك الشبان الذين تلقوا صفعات التأديب ولطمات التأنيب بنـزواتهم وأهوائهم. فقضوا نضارة عمرهم في السجن، فحاجة هؤلاء إلى النور كحاجتهم إلى الخبز.

إنّ عروق الشباب تنبض لهوى المشاعر، وتستجيب لها أكثر مما تستجيب للعقل وترضخ له. وسَورات الهوى -كما هو معلوم- لا تُبْصرُ العُقبى، فتفضّلُ درهما من لذة حاضرة عاجلة على طنٍّ من لذة آجلة؛ فيُقْدِمُ الشابُ بدافع الهوى على قتل إنسان برئ للتلذذ بدقيقة واحدة من لذة الانتقام، ثم يقاسي من جرّائها ثمانية آلاف ساعة من آلام السجن.. والشاب ينساق إلى التمتع لساعة واحدة في اللهو والعبث -في قضية تخص الشرف- ثم يتجرع من ورائها آلام ألوف الأيام من سجن وخوف وتوجس

من العدو المتربص به.. وهكذا تضيع منه سعادة العمر بين قلق واضطراب وخوف وآلام.

وعلى غِرار هذا يقع الشباب المساكين في وَرْطَاتٍ ومشاكلَ عويصةٍ كثيرة حتى تحوّل ألطفَ أيام حياتهم وأحلاها إلى أمرِّ الأيام وأقساها، وفي حالة يُرثى لها. ولا سيّما بعد أن هبّتْ عواصفُ هوجاءُ من الشِّمال تحمل فتنا مدمرة لهذا العصر؛ إذ تستبيح لهوى الشباب الذي لا يَرَى العُقبى أعراضَ النساء والعذارى الفاتناتِ وتدفعهم إلى الاختلاط الماجن البَذِيءِ، فضلا عن إباحتها أموال الأغنياء لفقراء سفهاء.

إن فرائص البشرية كلِّها لترتعد أمام هذه الجرائم المنكرة التي تُرتكب بحقها.

فعلى الشباب المسلم في هذا العصر العصيب أن يشمّروا عن ساعد الجد لينقذوا الموقف، ويَسُلُّوا السيوفَ الألماسية لحجج «رسائل النور» وبراهينها الدامغة -التي في رسالة «الثمرة» و«مرشد الشباب» وأمثالهما- ويدافعوا عن أنفسهم، ويصدّوا هذا الهجومَ الكاسحَ الذي شُنّ عليهم من جهتين.. وإلّا فسيضيع مستقبل الشباب في العالم، وتذهب حياته السعيدة، ويفقد تنعّمه

في الآخرة، فتنقلب كلُّها إلى آلامٍ وعذاب؛ إذ سيكون نـزيل المستشفيات، بما كَسَبتْ يداه من إسراف وسفاهة.. ونـزيل السجون، بطيشه وغيّه.. وسيبكي أيام شيخوخته بكاءً مرا ويزفر زفرات مِلْؤُها الحسراتُ والآلام.

ولكن إذا ما صَانَ نَفْسَه بتربية القرآن، ووقاها بحقائق «رسائل النور» فسيكون شابا رائدا حقا، وإنسانا كاملا، ومسلما صادقا سعيدا، وسلطانا على سائر المخلوقات.

نعم، إن الشاب إذا دفع ساعة واحدة من أربعٍ وعشرين ساعةً من يومه في السجن إلى إقامة الفرائض، وتاب عن سيئاته ومعاصيه التي دفَعَتْه إلى السجن، وتجنّب الخطايا والذنوب مثلما يجنّبه السجن إياها.. فإنه سيعود بفوائد جَمّةٍ إلى حياته وإلى مستقبله وإلى بلاده وإلى أمته وإلى أحبّائه وأقاربه، فضلا عن أنه يكسب شبابا خالدا في النعيم المقيم بدلا من هذا الذي لا يدوم خمسَ عشَرة سنة.

هذه الحقيقة يبشّر بها ويخبر عنها عن يقين جازم جميع الكتب السماوية وفي مقدمتها القرآن الكريم.

نعم، إذا ما شكر الشاب على نعمة الشباب -ذلك العهد الجميل الطيب- بالاستقامة على الصراط السَّوي، وأداء العبادات، فإنّ تلك النعمة المهداةَ تزداد ولا تنقص،

وتبقى من دون زوال، وتُصبح أكثرَ متعةً وبهجة.. وإلّا فإنّها تكون بلاءً ومصيبةً مؤلمة ومغمورةً بالغم والحزن والمضايقات المزعجة حتى تذهب هباء فيكون عهد الشباب وَبَالا على نفسه وأقاربه وعلى بلاده وأمته.

هذا وإن كل ساعة من ساعات المسجون الذي حكم عليه ظلما تكون كعبادةِ يومٍ كاملٍ له؛ إن كان مؤديا للفرائض، ويكون السجن بحقه موضع انـزواء واعتزال من الناس كما كان الزهاد والعباد ينـزوون في الكهوف والمغارات ويتفرغون للعبادة. أي يمكن أن يكون هو مثل أولئك الزهاد.

وستكون كل ساعة من ساعاته إن كان فقيرا ومريضا وشيخا متعلقا قلبه بحقائق الإيمان وقد أناب إلى الله وأدّى الفـرائض، في حـكم عبـادة عشـرين ساعة له، ويتحول السجن بحقه مدرسـة تربوية إرشادية، وموضع تحابُب ومكان تعاطف، حيث يقضي أيامه مع زملائه في راحة فضلا عن راحته وتوجه الأنظار إليه بالرحمة، بل لعله يفضل بقاءَه في السجن على حريته في الخارج التي تنثال عليه الذنوب والخطايا من كل جانب، ويأنس بما يتلَقّى من دروس التربية والتزكية فيه. وحينما يغادره لا يغادره قاتلا

ولا حريصا على أخذ الثأر، وإنما يخرج رجلا صالحا تائبا إلى الله، قد غنم تجارب حياتية غزيرة. فيصبح عضوا نافعا للبلاد والعباد، حتى حدا الأمر بجماعة كانوا معنا في سجن «دنيزلي» إلى القول، بعدما أخذوا دروسا إيمانية في سمو الأخلاق ولو لفترة وجيزة من رسائل النور:

«لو تلقى هؤلاء دروس الإيمان من رسائل النور في خمسةِ أسابيع، فإنه أجدى لإصلاحهم من إلقائهم في السجن خمسَ عشرةَ سنة».

فما دام الموت لا يَفْنى من الوجود، والأجلُ مستور عنا بستار الغيب، ويمكنه أن يَحُلَّ بنا في كل وقت.. وإنّ القبر لا يُغلق بابه.. وإنّ البشرية تغيب وراءَه قافلةً إثر قافلة.. وان الموت نَفْسَه بحق المؤمنين ما هو إلّا تذكرةُ تسريحٍ وإعفاءٍ من الإعدام الأبدي -كما وضّح ذلك بالحقيقة القرآنية- وانه بحق الضالين السفهاء إعدام أبدي كما يشاهدونه أمامهم؛ إذ هو فراق أبدي عن جميع أحبّتهم وأقاربهم بل الموجودات قاطبة.. فلابُدَّ ولا شك بأنّ أسعد إنسان هو مَن يشكر ربَّه صابرا محتسبا في سجنه مستغلا وقته أفضلَ استغلال، ساعيا لخدمة القرآن والإيمان مسترشدا برسائل النور.

أيها الإنسان المبتلى بالملذات والمتع!

لقد علمتُ يقينا طوال خمس وسبعينَ سنة من العمر، وبألوف التجارب التي كسبتها في حياتي، ومثلها من الحوادث التي مرت عليّ أن الذوق الحقيقي، واللذة التي لا يشوبها ألم، والفرح الذي لا يكدّره حزن، والسعادة التامة في الحياة إنما هي في الإيمان، وفي نطاق حقائقه ليس إلّا. ومن دونه فإنّ لذةً دنيوية واحدة تحمل آلاما كثيرة كثيرة. وإذ تُقدِّمُ إليك الدنيا لذةً بقدر ما في حبة عنب تصفعك بعشر صفعات مؤلمات، سالبةً لذة الحياة ومتاعها.

أيها المساكين المبتلون بمصيبة السجن!

ما دامت دنياكم حزينة باكية، وإنّ حياتكم قد تعكرت بالآلام والمصائب، فابذلوا ما في وسعكم كيلا تبكي آخرتكم، ولتفرح وتحلو وتسعد حياتكم الأبدية. فاغتنموا يا إخوتي هذه الفرصة، إذ كما أن مرابطة ساعة واحدة أمام العدو ضِمْنَ ظروف شاقة يمكن أن تتحول إلى سنة من العبادة، فإنّ كلَّ ساعة من ساعاتكم التي تقاسونها في السجن تتحول إلى ساعات كثيرة هناك إذا ما أدّيتم الفَرائض، وعندها تتحول المشقات والمصاعب إلى رَحَمَاتٍ وغفران.

* * *

بِاسمِهِ سُبحَانَهُ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أبدا دائما.

أيها الإخوة الأعزاء الأوفياء!

لقد رأيت أنوار سُلوان ثلاثة، أبينها في نقاط ثلاث للذين ابتلوا بالسجن ومن يقوم بنظارتهم ورعايتهم ومن يعينهم في أعمالهم وأرزاقهم.

النقطة الأولى: إن كل يوم من أيام العمر التي تمضي في السجن، يمكن أن يُكسِب المرءَ ثوابَ عبادة عشرة أيام، ويمكن أن يحوّل ساعاته الفانية -من حيث النتيجة- إلى ساعات باقية خالدة.. بل يمكن أن يكون قضاء بضع سنين في السجن وسيلة نجاة من سجن أبدي لملايين السنين.

فهذا الربح العظيم مشروط لأهل الإيمان بأداء الفرائض والتوبة إلى الله من الذنوب والمعاصي التي دفعته إلى السجن، والتوجه إليه تعالى بالشكر صابرا محتسبا. علما ان السجن نفسَه يحول بينه وبين كثير من الذنوب.

النقطة الثانية: إن زوال الألم لذة، كما أن زوال اللذة ألم.

نعم، إن كل من يفكر في الأيام التي قضاها بالهناء والفرح يشعر في روحه حسرة وأسفا عليها، حتى ينطلق لسانه بكلمات الحسرات: أواه.. آه.. بينما إذا تفكر في الأيام التي مرت بالمصائب والبلايا فإنّه يشعر في روحه وقلبه فرحا وبهجة من زوالها حتى ينطلق لسانه بـ: الحمد لله والشكر له، فقد ولّت البلايا تاركةً ثوابَها. فينشرح صدره ويرتاح.

أي إنّ ألما موقتا لساعة من الزمان يترك لذة معنوية في الروح، بينما لذة موقتة لساعة من الزمان تترك ألما معنويا في الروح، خلافا لذلك.

فما دامت الحقيقة هذه، وساعات المصائب التي ولّت مع آلامها أصبحت في عِداد المعدوم، وأنّ أيام البلايا لم تأت بعدُ، فهي أيضا في حكم المعدوم.. وإنّه لا ألَمَ من غير شيء.. ولا يَرِدُ من العدم ألم.. فمن البلاهة إذن إظهار الجزع ونفاد الصبر الآن، من ساعات آلامٍ ولّتْ، ومن آلامٍ لم تأتِ بعدُ، علما أنها جميعا في عِداد المعدوم. ومن الحماقة أيضا إظهار الشكوى من الله وترك النفس الأمارة المقصّرة من المحاسبة، ومن بعد ذلك قضاء الوقت بالحسرات والزفرات. أوَ ليس من يفعل هذا أشدُّ بلاهة

ممن يداوم على الأكل والشرب طَوالَ اليوم خشيةَ أن يجوع أو يعطش بعد أيام؟

نعم، إنّ الإنسان إن لم يُشتِّتْ قوة صبره يمينا وشمالا -إلى الماضي والمستقبل- وسدّدها إلى اليوم الذي هو فيه، فإنها كافية لتحل له حبالَ المضايقات.

حتى إنني أذكر -ولا أشكو- أنّ ما مرَّ عليَّ في هذه المدرسة اليوسفية الثالثة[1] في غضون أيام قلائل من المضايقات المادية والمعنوية لم أرها طوال حياتي، ولاسيّما حرماني من القيام بخدمة النور مع ما فيّ من أمراض. وبينما كان قلبي وروحي يعتصران معا من الضيق واليأس إذا بالعناية الإلهية تمدني بالحقيقة السابقة، فانشرح صدري أيّما انشراح وولّت تلك المضايقات فرضيت بالسجن وآلامه والمرض وأوجاعه. إذ من كان مثلي على شفير القبر يُعدّ ربحا عظيما له أن تتحول ساعة من ساعاته التي يمكن أن تمر بغفلة إلى عشر ساعات من العبادة.. فشكرت الله كثيرا.

النقطة الثالثة: إن القيام بمعاونة المسجونين بشفقة ورأفة وإعطاءهم أرزاقهم التي يحتاجون إليها وضماد

(١) المقصود: سجن «أفيون» حيث دخله الأستاذ النورسي وطلاب النور سنة ١٩٤٨.

جراحاتهم المعنوية ببلسم التسلّي والعزاء، مع أنه عمل بسيط إلّا أنّه يحمل في طياته ثوابا جزيلا وأجرا عظيما. حيث إن تسليم أرزاقهم التي تُرسل إليهم من الخارج يكون بحكم صَدقة، وتكتب في سجل حسنات كل مَن قام بهذا العمل، سواءا الذين أتوا بها من الخارج أو الحراس أو المراقبون الذين عاونوهم، ولاسيّما إن كان المسجون شيخا كبيرا أو مريضا أو غريبا عن بلده أو فقيرا معدما، فإنّ ثواب تلك الصدقة المعنوية يزداد كثيرا.

وهذا الربح العظيم مشروط بأداء الفرائض من الصلوات لتصبح تلك الخدمة لوجه الله.. مع شرط آخر هو أن تكون الخدمة مقرونة بالشفقة والرحمة والمحبة من دون أن يحمّل شيئا من المنّة.

* * *

بِاسمِهِ سُبحَانَهُ

﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أبدا دائما.

يا إخوتي في الدين ويا زملائي في السجن!.

لقد أخطر لقلبي أن أبَيّن لكم حقيقةً مهمة، تُنقذكم بإذن الله من عذاب الدنيا والآخرة وهي كما أوضحها بمثال:

إنّ أحدا قد قتل شقيقَ شخص آخر أو أحد أقربائه. فهذا القتل الناجم من لذة غرور الانتقام التي لا تستغرق دقيقة واحدة تورثه مقاساةَ ملايين الدقائق من ضيق القلب وآلام السجن. وفي الوقت نفسه يظل أقرباء المقتول أيضا في قلق دائم وتحيّن الفرص لأخذ الثأر، كلما فكروا بالقاتل ورأوا ذويه. فتضيع منهم لذة العمر ومتعة الحياة بما يكابدون من عذاب الخوف والقلق والحقد والغضب.

ولا علاج لهذا الأمر ولا دواء له إلّا الصلح والمصالحة بينهما، وذلك الذي يأمر به القرآن الكريم، ويدعو إليه الحق والحقيقة، وفيه مصلحة الطرفين، وتقتضيه الإنسانية، ويحث عليه الإسلام.

نعم، إن المصلحة والحقيقة في الصلح، والصلح خير؛ لأنّ الأجل واحد لا يتغير، فذلك المقتول على كل حال ما كان ليظل على قيد الحياة ما دام أَجَلُه قد جاء. أما ذلك القاتل فقد أصبح وسيلة لذلك القضاء الإلهي، فإن لم يحل بينهما الصلحُ فسيظلان يعانيان الخوف وعذاب الانتقام مدة مديدة؛ لذا يأمر الإسلام بعدم هجر المسلم أخاه فوق ثلاثة أيام.[1] فان لم يكن ذلك القتل قد نجم من عداء أصيل ومن حقد دفين، وكان أحد المنافقين سببا في إشعال نار الفتنة، فيلزم الصلح فورا، لأنه لولا الصلح لعظمت تلك المصيبة الجزئية ودامت، بينما إذا ما تصالح الطرفان وتاب القاتل عن ذنبه، واستمر على الدعاء للمقتول، فإن الطرفين يكسبان الكثير، حيث يدب الحب والتآلف بينهما، فيصفح هذا عن عدوه ويعفو عنه واجدا أمامه إخوة أتقياءَ أبرارا بدلا من شقيق واحد راحل، ويستسلمان معا لقضاء الله وقدره، ولا سيما الذين استمعوا إلى دروس النور، فهم مدعوون لهجر كل ما يفسد بين اثنين، إذ الأخوة التي تربطهم ضمن نطاق النور، والمصلحة العامة، وراحة البال وسلامة الصدر التي يستوجبها الإيمان..

(١) البخاري، الأدب ٥٧، ٦٢، الاستئذان ٩؛ مسلم، البر ٢٣، ٢٥، ٢٦؛ أبو داود، الأدب ٤٧؛ الترمذي، البر ٢١، ٢٤؛ ابن ماجه، المقدمة ٧.

تقتضي كلها نبذَ الخلافات وإحلال الوفاق والوئام.
ولقد حصل هذا فعلا بين مسجونين يعادي بعضهم بعضا في سجن «دنيزلي» فأصبحوا بفضل الله أخوة متحابين بعد أن تلقوا دروسا من رسائل النور، بل غدوا سببا من أسباب براءتنا، حتى لم يجد الملحدون والسفهاء من الناس بُدّا أمام هذا التحابب الأخروي، فقالوا مضطرين: ما شاء الله.. بارك الله!!

وهكذا انشرحت صدور السجناء جميعا وتنفسوا الصعداء بفضل الله. إذ إني أرى هنا مدى الظلم الواقع على المسجونين، حيث يشدد الخناق على مائة منهم بجريرة شخص واحد، حتى إنهم لا يخرجون معه إلى فناء السجن في أوقات الراحة.. إلَّا أنّ المؤمن الغيور لا تسعه شهامته أن يؤذي المؤمن قط، فكيف يسبب له الأذى لمنفعته الجزئية الخاصة، فلابدَّ أن يسارع إلى التوبة والإنابة إلى الله حالما يشعر بخطئه وتسبّبه في أذى المؤمن.

* * *

بِاسمِهِ سُبحَانَهُ

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أبدا دائما

إخوتي المسجونين الأعزّاء الجدد والقدامى!

لقد بِتُّ على قناعة تامة من أن العناية الإلهية هي التي ألقت بنا إلى ههنا وذلك لأجلكم أنتم، أي إنّ مجيئنا إلى هنا إنما هو لِبَثِّ السلوان والعزاء الذي تحمله رسائل النور إليكم.. وتخفيف مضايقات السجن عنكم بحقائق الإيمان.. وصونكم من كثير من بلايا الدنيا ولأوائها.. وانتشال حياتكم المليئة بالأحزان والهموم من العبثية وعدم الجدوى.. وإنقاذ آخرتكم من أن تكون كدنياكم حزينة باكية.

فما دامت الحقيقة هي هذه، فعليكم أن تكونوا إخوة متحابين كطلاب النور وكأولئك الذين كانوا معنا في سجن «دنيزلي».

فها أنتم أولاءِ ترون الحراس الذين يحرصون على القيام بخدماتكم يعانون الكثير من المشقات في التفتيش، بل حتى إنهم يفتشون طعامكم لئلا تكون فيه آلة جارحة،

ليحولوا دون تجاوز بعضكم على بعض، وكأنكم وحوش مفترسة ينقضُّ الواحد على الآخر ليقتله، فضلا عن أنكم لا تستمتعون بالفرص التي تتاح لكم للتفسح والراحة خوفا من نشوب العِراك فيما بينكم.

ألا فقولوا مع هؤلاء الإخوة حديثي العهد بالسجن الذين يحملون مثلكم بطولة فطرية وشهامة وغيرة.

قولوا أمام الهيئة ببطولة معنوية عظيمة في هذا الوقت:

«ليست الآلات الجارحة البسيطة، بل لو سلمتم إلى أيدينا أسلحة نارية فلا نتعدَّى على أصدقائنا وأحبابنا هؤلاء الذين نكبوا معنا، حتى لو كان بيننا عداء أصيل سابق؛ فقد عفونا عنهم جميعا، وسنبذل ما في وسعنا ألَّا نجرح شعورَهم ونكسر خاطرَهم، هذا هو قرارنا الذي اتخذناه بإرشاد القرآن الكريم وبأمر أخوة الإسلام وبمقتضى مصلحتنا جميعا».

وهكذا تحوّلون هذا السجن إلى مدرسة طيبة مباركة.



ذيل المقام الثاني من الكلمة الثالثة عشرة

خاطرة في ليلة القدر

هذه حقيقة واسعة جدا وطويلة في الوقت نفسه، خطرت على القلب ليلةَ القدر سأحاول أن أشير إليها إشارةً مختصرة جدا، كالآتي:

أولا:

لقد قاستِ البشريةُ من ويلات هذه الحرب العالمية الأخيرة أيَّ مُقاساة، إذ رأتْ أشدَّ أنواع الظلم وأقسى أنواع الاستبداد والتحكم، مع الدمار الظالم المريع في الأرض كافة؛ فقد نكب مئاتُ الأبرياء بجريرة شخص واحد، ووقع المغلوبون على أمرهم في بؤس وشقاء مريرَين، وبات الغالبون في عذاب وجداني أليم لعجزهم عن إصلاح دمارهم الفظيع وخشيتهم من أن يعجزوا عن الحفاظ على سيادتهم. وظهر للناس بجلاء تام؛ أنّ الحياة الدنيا فانية لا ريب فيها، وأنّ زخارف المدنية خادعة ومخدّرة لا تُجدي شيئا، وتلطّخت البشرية بدماء الطعنات القوية التي نـزلت بالذات الإنسانية وبالاستعدادات الرفيعة في فطرتها.. وظهر للعيان تحطم

الغفلة والضلالة والطبيعة الجامدة الصماء تحت ضربات سيف القرآن الألماسي.. وافتضحت الصورة الحقيقية للسياسة الدولية الشوهاء الغدارة والتي هي أوسعُ ستار وأكثفه لإغفال الناس وإضلالهم وأشدُّه خنقا وخداعا لروحهم.

فلاشك أنّ فطرة البشرية -بعد وضوح هذه الأمور- ستبحث عن معشوقها «الحقيقي» وهو الحياة الباقية الخالدة وتسعى إليها بكل قواها -وقد بدت أماراتُها في شمال العالم وغربه وفي أمريكا- وستعلم جيدا أن الحياة الدنيا التي تتعشقها عشقا «مجازيا» دميمةً شوهاء، فانية زائلة.

ولا ريب أنها ستبحث عن القرآن الكريم الذي له في كل عصر ثلاثمائة مليونٍ من العاملين له المتتلمذين عليه منذُ ألفٍ وثلاثمائة وستين سنة.. والذي يُصدِّق كل حكم من أحكامه ودعاويه ملايين من أرباب الحقيقة.. والذي يحتفظ بمكانته المقدسة في قلوب ملايين الحُفَّاظ في كل دقيقة.. والذي يُرشد البشرية بألسنتهم، ويُبشِّرها بأسلوبه المعجز بالحياة الباقية والسعادة الدائمة، مُضمِّدا بها جِراحاتها الغائرة، بل يبشّر بها بالألوف من آياته القوية الشديدة المكررة، بل قد يخبر عنها صراحةً أو إشارةً

بعشرات الألوف من المرات، ناصبا عليها ما لا يعد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة والحجج الثابتة.

فإن لم تفقد البشرية صوابها كليا ولم تقم عليها قيامة -مادية أو معنوية- فستبحث حتما عن القرآن الكريم المعجز البيان كما حدث في قارات العالم كلّه ودولها العظمى، وحدث فعلا في السويد و النرويج و فنلندا، ومثلما يسعى لقبوله خطباء مشهورون من إنكلترا وتقوم بالبحث عنه جمعية تتحرى الدين الحق وهي ذات شأن في أمريكا.. ولأبُدَّ أنهم بعد أن يُدركوا حقائقه سيعتصمون به ويلتفون حوله بكل مُهَجِهم وأرواحهم. ذلك لأنّه ليس من نظيرٍ للقرآن في معالجة هذه الحقيقة، ولن يكون، ولا يمكن أن يسد مسدّ هذه المعجزة الكبرى شيء قطعا.

ثانيا:

إن رسائل النور قد أظهرتْ خدماتِها كسيف ألماسي قاطع بيد هذه المعجزة الكبرى، حتى ألزمت الحجة أعداءَها العنيدين وألجأتهم إلى الاستسلام، وأنّها تقوم بوظيفتها بين يدي هذه الخزينة القرآنية من حيث كونها معجزةً لمعانيه المعجزة على نحو تستطيع أن تنور القلب والروح والمشاعر، مناولةً كلا منها علاجاتها الناجعة.

ولا غرو فهي الداعية إلى هذا القرآن العظيم والمستفيضة منه وحده ولا ترجع إلّا إليه.

وإنها إذ تقوم بمهمتها خير قيام، انتصرت في الوقت نفسه على الدعايات المغرضة الظالمة التي يشيعها أعداؤها، وقضت على أشد الزنادقة تعنتا، ودكّت أقوى قلاع الضلالة التي تحتمي بها وهي «الطبيعة» برسالة «الطبيعة»، كما بددت الغفلة وأظهرت نور التوحيد في أوسع ميادين العلوم الحديثة وأشد الظلمات الخانقة للغفلة بالمسألة السادسة «للثمرة» وبالحجج الأولى والثانية والثالثة.. والثامنة من رسالة «عصا موسى».

ومن هنا فإنه من الضروري لنا -وأكثر ضرورةً للأمة- أن يفتح طلاب النور -في حدود القُدرات المتاحة- في كل مكان مدارسَ نورية صغيرة بعدما سمحت الدولة -في الوقت الحاضر- بفتح مدارس خاصة لتدريس الدين.[1]

صحيح أنّ كلَّ قارئ للرسائل يستطيع أن يستفيد منها شيئا لنفسه إلّا أنّه لا يستطيع أن يستوعب كل مسألة من مسائلها؛ ذلك لأنها إيضاح لحقائق الإيمان؛ فهي دروس

---

(١) لقد ألغيت المدارس الدينية في تركيا منذ أواخر العشرينات حتى سنة ١٩٥٠.

علمية، ومعرفة إلهية، وسكينة للقلب وعبادة لله في الوقت نفسِه.(١)

إن النتائج التي كان يمكن الحصول عليها في المدارس الدينية طوال خمسٍ أو عشرِ سنوات يمكن الحصول عليها في مدارس النور في خمسة أو عشرةِ أسابيع بإذن الله، بل ضمنت تلك النتائج في العشرين سنة التي خلت والحمد لله.

ثم بات من المسلّم به فائدة هذه الرسائل الداعية إلى القرآن؛ والتي هي لمعات من أنواره الباهرة، لحياة الأمة ولأمن البلاد؛ وحتى لحياتها السياسية فضلا عن حياتها الأخروية؛ فمن الضروري إذن للدولة ألّا تتعرض لها بسوء بل تسعى جادة إلى نشرها وتشجع الناس على قراءتها.. ليكون عملُها هذا كفّارة عما اقترفت من سيئآت فاحشة سابقة وسدا منيعا في وجه ما سيقبل من ويلات ومصائب وفوضى وإرهاب.

* * *

(١) حتى إن لم يكن أحدهم بحاجة إلى التعلم فهو بلا شك في شوق إلى العبادة أو إلى المعرفة الإلهية أو إلى اطمئنان القلب وسكينته. ولهذا فان رسائل النور درس ضروري لكل فرد. (المؤلف)

الرجاء السابع
الإيمان سلوان

حينما تبدلت نشوة «سعيد القديم» وابتساماته إلى نحيب «سعيد الجديد» وبكائه، وذلك في بداية المشيب، دعاني أربابُ الدنيا في «أنقرة» إليها، ظناً منهم أنني «سعيد القديم» فاستجبت للدعوة.

فذات يوم من الأيام الأخيرة للخريف، صعدت إلى قمّة «قلعة أنقرة»، التي أصابها الكبر والبلى أكثر مني، فتمثّلت تلك القلعة أمامي كأنها حوادث تاريخية متحجرة، واعتراني حزن شديد وأسى عميق من شيب السنة في موسم الخريف، ومن شيبي أنا، ومن هرم القلعة، ومن هرم البشرية ومن شيخوخة الدولة العثمانية العلية، ومن وفاة سلطنة الخلافة، ومن شيخوخة الدنيا. فاضطرتني تلك الحالة إلى النظر من ذروة تلك القلعة المرتفعة إلى أودية الماضي وشواهق المستقبل، أنقب عن نور، وأبحث عن رجاء وعزاء ينير ما كنت أحسّ به من أكثف الظلمات التي غشيت روحي هناك وهي غارقة في ليل هذا الهرم المتداخل المحيط.[1]

---

(١) وردت هذه الحالة الروحية على صورة مناجاة إلى القلب باللغة الفارسية، فكتبتها كما وردت، ثم طبعت ضمن رسالة «حباب» في أنقرة. (المؤلف). (راجع المثنوي العربي النوري)

فحينما نظرت إلى اليمين الذي هو الماضي باحثاً عن نور ورجاء، بدت لي تلك الجهة من بعيد على هيئة مقبرة كبرى لأبي وأجدادي والنوع الإنساني، فأوحشتني بدلاً من أن تسلّيني .

ثم نظرت إلى اليسار الذي هو المستقبل مفتشاً عن الدواء، فتراءى لي على صورة مقبرة كبرى مظلمة لي ولأمثالي وللجيل القابل، فأدهشني عوضاً من أن يؤنسني.

ثم نظرت إلى زمني الحاضر بعد أن امتلأ قلبي بالوحشة من اليمين واليسار، فبدا ذلك اليوم لنظري الحسير ونظرتي التاريخية على شكل نعش لجنازة جسمي المضطرب كالمذبوح بين الموت والحياة.

فلما يئست من هذه الجهة أيضاً، رفعت رأسي ونظرت إلى قمة شجرة عمري، فرأيت أن على تلك الشجرة ثمرة واحدة فقط، وهي تنظر إليّ، تلك هي جنازتي، فطأطأت رأسي ناظراً إلى جذور شجرة عمري، فرأيت أن التراب الذي هناك ما هو إلّا رميم عظامي، وتراب مبدأ خلقتي قد اختلطا معاً وامتزجا، وهما يُداسان تحت الأقدام، فأضافا إلى دائي داءً من دون أن يمنحاني دواءً.

ثم حوّلتُ نظري على مضض إلى ما ورائي، فرأيت أن هذه الدنيا الفانية الزائلة تتدحرج في أودية العبث

وتنحدر في ظلمات العدم، فسكبتْ هذه النظرة السمَّ على جروحي بدلاً من أن تواسيها بالمرهم والعلاج الشافي.

ولما لم أجد في تلك الجهة خيراً ولا أملاً، ولّيت وجهي شطر الأمام ورنوت بنظري بعيداً، فرأيت أن القبر واقفٌ لي بالمرصاد على قارعة الطريق، فاغراً فاه، يحدق بي، وخلفَه الصراط الممتد إلى حيث الأبد، وتتراءى القوافل البشرية السائرة على ذلك الصراط من بعيد. وليس لي من نقطة استناد أمام هذه المصائب المدهشة التي تأتيني من الجهات الست، ولا أملك سلاحاً يدفع عني غيرَ جزء ضئيل من الإرادة الجزئية. فليس لي إذن أمام كل أولئك الأعداء الذين لا حصر لهم، والأشياء المضرة غير المحصورة، سوى السلاح الإنساني الوحيد وهو الجزء الاختياري. ولكن لما كان هذا السلاح ناقصاً وقاصراً وعاجزاً، ولا قوة له على إيجاد شيء، وليس في طوقه إلّا الكسب فحسب، حيث لا يستطيع أن يمضي إلى الزمان الماضي ويذبّ عني الأحزانَ ويسكتها، ولا يمكنه أن ينطلق إلى المستقبل حتى يمنع عنّي الأهوالَ والمخاوف الواردة منه، أيقنت ألّا جدوى منه فيما يحيط بي من آلام وآمال الماضي والمستقبل.

وفيما كنت مضطرباً وسط الجهات الست تتوالى عليّ منها صنوف الوحشة والدهشة واليأس والظلمة، إذا بأنوار الإيمان المتألقة في وجه القرآن المعجز البيان، تمدّني وتضيء تلك الجهات الست وتنورها بأنوار باهرة ساطعة ما لو تضاعف ما انتابني من صنوف الوحشة وأنواع الظلمات مائةَ مرة، لكانت تلك الأنوار كافيةً ووافية لإحاطتها.

فبدّلت -تلك الأنوارُ- السلسلة الطويلة من الوحشة إلى سلوان ورجاء، وحوّلت كلَّ المخاوف إلى أُنس القلب، وأمل الروح الواحدة تلو الأخرى.

نعم، إنَّ الإيمان قد مزق تلك الصورة الرهيبة للماضي وهي كالمقبرة الكبرى، وحوّلها إلى مجلس منوّر أنوس وإلى ملتقى الأحباب، وأظهر ذلك بعين اليقين وحق اليقين...

ثم إن الإيمان قد أظهر بعلم اليقين أن المستقبل الذي يتراءى لنا بنظر الغفلة، كقبر واسع كبير ما هو إلّا مجلس ضيافة رحمانية أُعدّت في قصور السعادة الخالدة.

ثم إنَّ الإيمان قد حطّم صورة التابوت والنعش للزمن الحاضر التي تبدو هكذا بنظر الغفلة، وأشهدني أن اليوم الحاضر إنما هو متجر أخروي، ودار ضيافة رائعة للرحمن.

ثم إنَّ الإيمان قد بصّرني بعلم اليقين أن ما يبدو بنظر الغفلة من الثمرة الوحيدة التي هي فوق شجرة العمر على شكل نعش وجنازة. أنها ليست كذلك، وإنما هي انطلاق لروحي -التي هي أهل للحياة الأبدية ومرشحة للسعادة الأبدية- من وكرها القديم إلى حيث آفاق النجوم للسياحة والارتياد.

ثم إن الإيمان قد بيّن بأسراره أن عظامي ورميمها وترابَ بداية خِلقَتي، ليسا عظاماً حقيرة فانية تداس تحت الأقدام، وإنما ذلك التراب باب للرحمة، وستار لسرادق الجنة.

ثم إن الإيمان أراني بفضل أسرار القرآن الكريم أنَّ أحوال الدنيا وأوضاعها المنهارة في ظلمات العدم بنظر الغفلة، لا تتدحرج هكذا في غياهب العدم -كما ظُنّ في بادئ الأمر- بل إنها نوع من رسائل ربانية ومكاتيب صمدانية، وصحائف نقوش للأسماء السبحانية قد أتمّت مهامَّها، وأفادت معانيها، وأخلفت عنها نتائجها في الوجود، فأعلمني الإيمان بذلك ماهيةَ الدنيا علم اليقين.

ثم إنَّ الإيمان قد أوضح لي بنور القرآن أنَّ ذلك القبر الذي أَحدَق بي ناظراً ومنتظراً ليس هو بفوهة بئر، وإنما هو

بابٌ لعالم النور. وأن ذلك الطريق المؤدي إلى الأبد ليس طريقاً ممتداً ومنتهياً بالظلمات والعدم، بل إنه سبيل سَويّ إلى عالم النور، وعالم الوجود وعالم السعادة الخالدة.. وهكذا أصبحت هذه الأحوال دواءً لدائي، ومرهماً له، حيث قد بدت واضحة جلية فأقنعتني قناعة تامة.

ثم، إنَّ الإيمان يمنح ذلك الجزء الضئيل من الجزء الاختياري الذي يملك كسباً جزئياً للغاية، وثيقة يستند بها إلى قدرة مطلقة، وينتسب بها إلى رحمة واسعة، ضد تلك الكثرة الكاثرة من الأعداء والظلمات المحيطة، بل إن الإيمان نفسَه يكون وثيقة بيد الجزء الاختياري. ثم إن هذا الجزء الاختياري الذي هو السلاح الإنساني، وإن كان في حد ذاته ناقصاً عاجزاً قاصراً، إلّا أنه إذا استعمل باسم الحق سبحانه، وبُذل في سبيله، ولأجله، يمكن أن يُنال به -بمقتضى الإيمان- جنة أبدية بسعة خمسمائة سنة. مَثَلُ المؤمن في ذلك مثل الجندي إذا استعمل قوته الجزئية باسم الدولة فإنه يسهل له أن يؤدي أعمالاً تفوق قوته الشخصية بألوف المرات.

وكما أن الإيمان يمنح الجزءَ الاختياري وثيقة، فإنه يسلب زمامه من قبضة الجسم الذي لا يستطيع النفوذ

في الماضي ولا في المستقبل، ويسلّمه إلى القلب والروح، ولعدم انحصار دائرة حياة الروح والقلب في الزمن الحاضر كما هو في الجسد، ولدخول سنوات عدة من الماضي وسنوات مثلها من المستقبل في دائرة تلك الحياة، فإن ذلك الجزء الاختياري ينطلق من الجزئية مكتسباً الكلية. فكما أنه يدخل بقوة الإيمان في أعمق أودية الماضي مبدداً ظلمات الأحزان، كذلك يصعد محلقاً بنور الإيمان إلى أبعد شواهق المستقبل مزيلاً أهواله ومخاوفه.

فيا أيها الإخوان الشيوخ، ويا أيتها الأخوات العجائز، ويا من تتألمون مثلي من تعب المشيب! ما دمنا والحمد لله من أهل الإيمان، والإيمان فيه خزائن حلوة نيرة لذيذة محبوبة إلى هذا الحد، وأن شيبنا يدفعنا إلى هذه الخزائن دفعاً أكثر، فليس لنا التشكي من الشيخوخة إذن، بل يجب علينا أن نقدم ألف شكر وشكر إلى الله عزّ وجلّ، وأن نحمده تعالى على شيبنا المنوّر بالإيمان.

* * *

الرجاء الثامن

صحوة القلب

حينما خالط بعضَ شعراتِ رأسي البياضُ الذي هو علامةُ الشيخوخة، وكانت أهوال الحرب العالمية الأولى وما خلّفه الأسر لدى الروس من آثار عميقة في حياتي عمّقت فيّ نومَ غفلة الشباب. وتلا ذلك استقبالٌ رائع عند عودتي من الأسر إلى استانبول، سواءٌ من قِبل الخليفة أو شيخ الإسلام، أو القائد العام، أو من قبل طلبة العلوم الشرعية، وما قوبلت به من تكريم وحفاوة أكثر مما أستحق بكثير.. كل ذلك ولّد عندي حالةٌ روحية فضلاً عن سكرة الشباب وغفلته، وعمّقتْ فيّ ذلك النومَ أكثر، حتى تصورتُ معها أنَّ الدنيا دائمة باقية، ورأيت نفسي في حالة عجيبة من الالتصاق بالدنيا كأنني لا أموت.

ففي هذا الوقت، ذهبت إلى «جامع بايزيد» في استانبول، وذلك في شهر رمضان المبارك لأستمع إلى القرآن الكريم من الحفّاظ المخلصين، فاستمعتُ من لسان أولئك الحفاظ ما أعلنه القرآنُ المعجز بقوة وشدة، خطابه السماوي الرفيع في موت الإنسان وزواله، ووفاة ذوي الحياة وموتهم،

وذلك بنص الآية الكريمة: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (الأنبياء: ٣٥). نَفَذَ هذا الإعلان الداوي صماخَ أذني مخترقاً وممزقاً طبقات النوم والغفلة والسكرة الكثيفة الغليظة حتى استقر في أعماق قلبي. فخرجتُ من الجامع، ورأيت نفسي لبضعة أيام، كأنَّ إعصاراً هائلاً يضطرم في رأسي بما بقي من آثار ذلك النوم العميق المستقر فيّ منذ أمد طويل، ورأيتُني كالسفينة التائهة بين أمواج البحر المضطربة البوصلة. كانت نفسي تتأجج بنار ذات دخان كثيف.. وكلما كنت أنظر إلى المرآة، كانت تلك الشعراتُ البيضاء تخاطبني قائلة: انتبه!!!.

نعم، إنَّ الأمور توضحت عندي بظهور تلك الشعرات البيضاء وتذكيرها إياي، حيث شاهدت أن الشباب الذي كنت أغتر به كثيراً، بل كنت مفتوناً بأذواقه يقول لي: الوداع! وأن الحياة الدنيا التي كنت أرتبط بحبها بدأت بالانطفاء رويداً رويداً، وبدَت لي الدنيا التي كنت أتشبث بها، بل كنت مشتاقاً إليها وعاشقاً لها، رأيتها تقول لي: الوداع!! الوداع!! مشعرةً إياي، بأنني سأرحل من دار الضيافة هذه، وسأغادرها عما قريب. ورأيتها -أي الدنيا- هي الأخرى تقول: الوداع، وتتهيأ للرحيل. وانفتح للقلب

من كلية هذه الآية الكريمة: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ومن شموليتها، ذلك المعنى الذي يتضمنها وهو:

إنَّ البشرية قاطبة إنما هي كالنفس الواحدة، فلابد أنها ستموت كي تُبعث من جديد، وإن الكرة الأرضية كذلك نفسٌ فلابد أنها سوف تموت ويصيبها البوارُ كي تتخذ هيأة البقاء وصورة الخلود، وإن الدنيا هي الأخرى نفسٌ وسوف تموت وتنقضي كي تتشكل بصورة «آخرة».

فكرت فيما أنا فيه؛ فرأيت: أن الشباب الذي هو مدار الأذواق واللذائذ، ذاهبٌ نحو الزوال، تارك مكانه للشيخوخة التي هي منشأ الأحزان. وأن الحياة الساطعة الباهرة لفي ارتحال، ويتهيأ الموتُ المظلم المخيف -ظاهراً- ليحل محلها.

ورأيت الدنيا التي هي محبوبة وحلوة ومعشوقة الغفاة وتُظن أنها دائمة، رأيتها تجري مسرعة إلى الفناء. ولكي أنغمس في الغفلة وأُخادع نفسي ولّيت نظري شطر أذواق المنـزلة الاجتماعية ومقامها الرفيع الذي حظيتُ به في استانبول والذي خُدعت به نفسي وهو فوق حدِّي وطوقي من حفاوة وإكرام وسلوان وإقبال وإعجاب.. فرأيت أن جميعها لا تصاحبني إلّا إلى حد باب القبر القريب مني، وعنده تنطفئ.

ورأيت أنَّ رياءً ثقيلاً، وأثرَة باردة وغفلة مؤقتة، تكمن تحت الستار المزركش للسُمعة والصِيت، التي هي المثل الأعلى لأرباب الشهرة وعشاقها، ففهمت أنَّ هذه الأمور التي خدعتني حتى الآن لن تمنحني أي سلوان، ولا يمكن أن أتلمس فيها أي قبس من نور.

ولكي أستيقظ من غفلتي مرة أخرى وأنتبه منها نهائياً، بدأتُ بالاستماع كذلك لأولئك الحفاظ الكرام في«جامع بايزيد» لأتلقى الدرس السماوي للقرآن الكريم.. وعندها سمعتُ بشارات ذلك الإرشاد السماوي من خلال الأوامر الربانية المقدسة في قوله تعالى:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ..﴾ (البقرة: ٢٥).

وبالفيض الذي أخذتُهُ من القرآن الكريم تحرّيت عن السلوة والرجاء والنور في تلك الأمور التي أدهشتني وحيّرتني وأوقعتني في يأسٍ ووحشة، دون البحث عنها في غيرها من الأمور. فألفَ شكر وشكر للخالق الكريم على ما وفّقني لأنْ أجد الدواءَ في الداء نفسه، وأن أرى النور في الظلمة نفسها، وأنْ أشعر بالسلوان في الألم والرعب ذاتهما.

فنظرت أول ما نظرتُ إلى ذلك الوجه الذي يُرعِب الجميع ويُتوهم أنه مخيف جداً.. وهو وجه «الموت»

فوجدت بنور القرآن الكريم، أنَّ الوجه الحقيقي للموت بالنسبة للمؤمن صبوحٌ منور، على الرغم من أن حجابه مظلمٌ والستر الذي يخفيه يكتنفه السواد القبيح المرعب. وقد أثبتنا وأوضحنا هذه الحقيقة بصورة قاطعة في كثير من الرسائل وبخاصة في «الكلمة الثامنة» و «المكتوب العشرين» من أن الموت: ليس إعداماً نهائياً، ولا هو فراقاً أبدياً، وإنما مقدمةٌ وتمهيد للحياة الأبدية وبداية لها. وهو إنهاء لأعباء مهمة الحياة ووظائفها ورخصة منها وراحة وإعفاء، وهو تبديلُ مكان بمكان، وهو وصال ولقاء مع قافلة الأحباب الذين ارتحلوا إلى عالم البرزخ.. وهكذا، بمثل هذه الحقائق شاهدت وجه الموت المليح الصبوح. فلا غرو لم أنظر إليه خائفاً وجلاً، وإنما نظرت إليه بشيءٍ من الاشتياق -من جهة- وعرفت في حينها سراً من أسرار «رابطة الموت» التي يزاولها أهل الطرق الصوفية.

ثم تأملت في «عهد الشباب» فرأيت أنه يُحزن الجميع بزواله، ويجعل الكل يشتاقون إليه وينبهرون به، وهو الذي يمر بالغفلة والآثام، وقد مرّ شبابي هكذا! فرأيت أن ثمة وجهاً دميماً جداً بل مُسكراً ومحيراً تحت الحُلَّة القشيبة الفضفاضة الملقاة عليه، فلو لم أكن مدركاً كنهه لكان يبكيني ويحزنني طوال حياتي الدنيا، حتى لو عمرت مائة سنة حيال

بضع سنين تمضي بنشوة وابتسامة، كما قال الشاعر الباكي على شبابه بحسرة مريرة:

فَيا لَيتَ الشَبابَ يَعودُ يَومًا
فَأُخبِرَهُ بِما فَعلَ المَشيبُ [1]

نعم، إنَّ الذين لم يتبينوا سرَّ الشباب وماهيتَه من الشيوخ يقضون شيخوختهم بالحسرة والنحيب على عهد شبابهم كهذا الشاعر. والحال أن فتوة الشباب ونضارته إذا ما حلّت في المؤمن المطمئن الحصيف ذي القلب الساكن الوقور، وإذا ما صُرفَت طاقةُ الشباب وقوتُه إلى العبادة والأعمال الصالحة والتجارة الأُخروية، فإنها تصبح أعظمَ قوة للخير وتغدو أفضل وسيلة للتجارة، وأجمل وساطة للحسنات بل ألذّها.

نعم، إنَّ عهد الشباب نفيس حقاً وثمين جداً، وهو نعمة إلهية عظمى، ونشوةٌ لذيذة لمن عرف واجبه الإسلامي ولمن لم يسئ استعماله. ولكن الشباب إن لم تصحبه الاستقامةُ، ولم ترافقه العفةُ والتقوى، فدونَه المهالكُ الوبيلة، إذ يصدّع طيشُه ونزواته سعادةَ صاحبه الأبدية، وحياتَه الأُخروية، وربما يحطم حياته الدنيا أيضاً. فيجرّعه الآلام

(١) لأبي العتاهية.

غصصاً طوال فترة الهرم والشيخوخة لما أخذه في بضع سنين من أذواق ولذائذ.

ولما كان عهد الشباب لا يخلو من الضرر عند أغلب الناس، فعلينا إذن نحن الشيوخ أن نشكر الله شكراً كثيراً على ما نجّانا من مهالك الشباب وأضراره. هذا وإن لذّات الشباب زائلةٌ لا محالة، كما تزول جميع الأشياء. فلئن صُرف عهدُ الشباب للعبادة، وبذل للخير والصلاح لكان دونه ثماره الباقية الدائمة، وعنده وسيلة الفوز بشباب دائم وخالد في حياة أبدية.

ثم نظرت إلى «الدنيا» التي عشقها أكثرُ الناس، وابتلوا بها. فرأيت بنور القرآن الكريم أن هناك ثلاث دنىً كلية قد تداخل بعضها في البعض الآخر:

الأولى: هي الدنيا المتوجهة إلى الأسماء الإلهية الحسنى، فهي مرآة لها.

الثانية: هي الدنيا المتوجهة نحو الآخرة، فهي مزرعتها.

الثالثة: هي الدنيا المتوجهة إلى أرباب الدنيا وأهل الضلالة، فهي لعبة أهل الغفلة ولهوهم.

ورأيت كذلك أن لكل أحد في هذه الدنيا دنيا عظيمة خاصة به، فهناك إذن دنىً متداخلة بعدد البشر.

غير أن دنيا كل شخص قائمةٌ على حياته الشخصية، فمتى ما ينهار جسمُ شخص فإن دنياه تتهدم وقيامتُه تقوم. وحيث إن الغافلين لا يدركون انهدام دنياهم الخاصة بهذه السرعة الخاطفة؛ فهم يفتنون بها، ويظنونها كالدنيا العامة المستقرة من حولهم.

فتأملت قائلاً: لا شك أن لي أيضاً دنيا خاصة - كدنيا غيري تتهدم بسرعة فما فائدة هذه الدنيا الخاصة إذن في عمري القصير جداً؟!.. فرأيت بنور القرآن الكريم أن هذه الدنيا -بالنسبة لي ولغيري- ما هي إلّا متجر مؤقت، ودار ضيافة تُملأ كل يوم وتخلى، وهي سوق مقامة على الطريق لتجارة الغادين والرائحين، وهي كتاب مفتوح يتجدد للبارئ المصور، فيمحو فيه ما يشاء ويثبته بحكمة. وكل ربيع فيها رسالة مرصعة مذهّبة، وكل صيف فيها قصيدةٌ منظومة رائعة، وهي مرايا تتجدد مظهرة تجليات الأسماء الحسنى للصانع الجليل، وهي مزرعة لغِراس الآخرة وحديقتها، وهي مزهرة الرحمة الإلهية، وهي مصنع موقت لتجهيز اللوحات الربانية الخالدة التي ستظهر في عالم البقاء والخلود. فشكرتُ الله الخالق الكريم أجزل شكر على خلقه الدنيا بهذه الصورة. بيد أن الإنسان الذي مُنح حباً مقبلاً

إلى وجهَي الدنيا الحقيقيين المليحين المتوجهين إلى الأسماء الحسنى وإلى الآخرة، أخطأ المرمى وجانَب الصواب عندما استعمل تلك المحبة في غير محلها، فصرفَها إلى الوجه الفاني القبيح ذي الغفلة والضرر حتى حق عليه الحديث الشريف

(حُبّ الدُّنيا رأسُ كلّ خَطيئة).[1]

فيا أيها الشيوخ ويا أيتها العجائز!.

إنني رأيت هذه الحقيقة بنور القرآن الحكيم، وبتذكير من شيخوختي، وبما منحه الإيمانُ لبصيرتي من نور، وقد أثبتُّها في رسائل كثيرة مع براهين دامغة.. رأيت أن هذه الحقيقة هي السلوان الحقيقي لي، وهي الرجاء القوي والضياء الساطع.. فرضيتُ بشيخوختي وهرمي وسررت من رحيل الشباب.

فلا تحزنوا إذن، ولا تبكوا يا إخوتي الشيوخ على شيخوختكم بل احمدوا الله واشكروه. وما دمتم تملكون الإيمان، والحقيقة تنطق هكذا، فليبكِ أولئك الغافلون، وليحزن الضالون ولينتحبوا..

* * *

(١) البخاري، التاريخ الكبير ٣/ ٤٧٢؛ الزبيدي، إتحاف السادة ٨/ ٨١؛ العجلوني، كشف الخفاء ١/ ٣٤٤-٣٤٥؛ علي القاري، الأسرار المرفوعة ص ١٠٨.

المسألة السادسة من «الثمرة»

العلوم تعرفنا بخالقنا

هذه المسألة إشارة مختصرة إلى برهان واحد فقط من بين أُلوف البراهين الكلية حول «الإيمان بالله» والذي تَمَّ إيضاحُه مع حُجَجِهِ القاطعة في عِدّة مواضعَ من رسائل النور.

جاءَني فريقٌ من طلاب الثانوية في «قسطموني»[1] قائلين:

«عرِّفنا بخالقنا، فإن مُدرّسينا لا يذكرون الله لنا!».

فقلت لهم:

«إن كل علم من العلوم التي تقرؤونها يبحث عن الله دوما، ويعرِّف بالخالق الكريم بلغته الخاصة. فأصغوا إلى تلك العلوم دون المدرسين».

فمثلا: لو كانت هناك صيدلية ضخمة، في كل قنينة من قنانيها أدوية ومستحضرات حيوية، وضِعت فيها بموازين حساسة وبمقادير دقيقة؛ فكما أنها تُرينا أنّ وراءها صيدليا

(١) قسطموني: مدينة تقع شمالي تركيا، نفي إليها الأستاذ النورسي سنة ١٩٣٦م وظل فيها تحت الإقامة الجبرية إلى أن سيق منها سنة ١٩٤٣ موقوفا لمحاكمته في محكمة الجزاء الكبرى في «دنيزلي».

حكيما وكيميائيا ماهرا، كذلك صيدلية الكرة الأرضية التي تضم أكثر من أربعمائة ألفِ نوعٍ من الأَحياء نباتا وحيوانا، وكل واحد منها في الحقيقة بمثابة زجاجة مستحضراتٍ كيمياوية دقيقة، وقنينةِ مخاليطَ حيويةٍ عجيبة. فهذه الصيدلية الكبرى تُري حتى للعميان صيدليّها الحكيم ذا الجلال، وتعرّف خالقَها الكريم سبحانه بدرجة كمالها وانتظامها وعظمتها، قياسا على تلك الصيدلية التي في السوق، وَفْقَ مقاييسِ «علم الطب» الذي تقرؤونه.

ومثلا: كما أنّ مصنعا خارقا عجيبا ينسج أُلوفا من أنواع المنسوجات المتنوعة، والأقمشة المختلفة، من مادة بسيطة جدا، يُرينا بلا شك أنّ وراءَه مهندسا ميكانيكيا ماهرا، ويعرّفه لنا؛ كذلك هذه الماكنة الربانية السيارة المُسمَّاةُ بالكرة الأرضية، وهذا المصنع الإلهي الذي فيه مئات الآلاف من مصانعَ رئيسيةٍ، وفي كل منها مئات الآلاف من المصانع المتقنة، يعرّف لنا بلا شك صانعَه ومالكَه، وَفْقَ مقاييسِ «علم المكائن» الذي تقرؤونه، يعرّفه بدرجة كمال هذا المصنع الإلهي، وعظمته قياسا على ذلك المصنع الإنساني.

ومثلا: كما أنّ حانوتا أو مخزنا للإعاشة والأَرزاق، ومحلا عظيما للأَغذية والمواد، أُحضِرَ فيه -من كل جانب- ألفُ

نوع من المواد الغذائية، ومُيِّز كلُ نوع عن الآخر، وصُفِّف في محله الخاص به، يُرينا أنّ له مالكا ومدبرا؛ كذلك هذا المخزن الرحماني للإعاشة الذي يسيح في كل سنة مسافةَ أربعةٍ وعشرين ألفَ سنة، في نظام دقيق متقن، والذي يضم في ثناياه مئات الآلاف من أصناف المخلوقات التي يحتاج كل منها إلى نوعٍ خاص من الغذاء. والذي يمر على الفصول الأربعة فيأتي بالربيع كشاحنة محمولة بآلاف الأنواع من مختلف الأطعمة، فيأتي بها إلى الخلق المساكين الذين نَفَد قوتُهم في الشتاء. تلك هي الكرة الأرضية، والسفينةُ السُّبحانيةُ التي تضم آلافَ الأنواع من البضائع والأجهزة ومعلّبات الغذاء. فهذا المخزن والحانوت الرباني، يُري -وَفْقَ مقاييس «علم الإعاشة والتجارة» الذي تقرأونه- صاحبَه ومالكَه ومتصرفَه بدرجة عظمة هذا المخزن، قياسا على ذلك المخزن المصنوع من قبل الإنسان، ويعرّفه لنا، ويحبّبه إلينا.

ومثلا: لو أن جيشا عظيما يضم تحت لوائه أربعمائةَ ألفِ نوع من الشعوب والأمم، لكل جنس طعامُه المستقل عن الآخر، وما يستعمله من سلاح يُغاير سلاحَ الآخر، وما يرتديه من ملابسَ تختلف عن ألبسة الآخر، ونمطُ

تدريباته وتعليماته يُباين الآخر، ومدةُ عمله وفترةُ رُخَصِهِ هي غيرُ المدة للآخر.. فقائدُ هذا الجيش الذي يزوّدهم وحده بالأرزاق المختلفة، والأسلحة المتباينة، والألبسة المتغايرة، دون نسيان أيٍّ منها ولا إلتباس ولا حيرة، لهو قائد ذو خوارق بلا ريب؛ فكما أنَّ هذا المعسكر العجيب يُرينا بداهة ذلك القائد الخارق، بل يحبّبه إلينا بكل تقدير وإعجاب؛ كذلك معسكرُ الأرض؛ ففي كل ربيع يجنّد مجددا جيشا سبحانيا عظيما مكونا من أربعمائة ألف نوع من شعوب النبـاتات وأمم الحيوانات، ويمنح لكل نوع ألبسته وأرزاقه وأسلحته وتدريبه ورُخَصه الخاصة به، من لدن قائد عظيم واحدٍ أحدٍ جلّ وعلا، بلا نسيان لأحد ولا اختلاط ولا تحيّر وفي منتهى الكمال وغاية الانتظام.. فهذا المعسكر الشاسع الواسع للربيع الممتد على سطح الأرض يُري -لأولي الألباب والبصائر- حاكمَ الأرض حسب «العلوم العسكرية» وربَّها ومدبرَها، وقائدَها الأقدس الأجلّ، ويعرّفه لهم، بدرجة كمال هذا المعسكر المهيب، ومدى عظمته، قياسا إلى ذلك المعسكر المذكور، بل يحبب مليكَه سبحانه بالتحميد والتقديس والتسبيح.

ومثلا: هَبْ أنّ ملايين المصابيح الكهربائية تتجول في مدينة عجيبة دون نَفَادٍ للوقود ولا إنطفاء؛ ألا تُري

-بإعجاب وتقدير- أَنّ هناك مهندسا حاذقا، وكهربائيا بارعا لمصنع الكهرباء، ولتلك المصابيح؟.. فمصابيح النجوم المتدلية من سقف قصر الأرض وهي أكبر من الكرة الأرضية نفسِها بألوف المرات حَسْبَ علمِ الفلك وتسير أسرعَ من إنطلاق القذيفة، من دون أن تَخل بنظامها، أو تتصادم مع بعضها مطلقا ومن دون إنطفاء، ولا نَفَاد وقودٍ وَفْقَ ما تقرأونه في «علم الفلك».. هذه المصابيح تشير بأصابع من نور إلى قدرة خالقها غير المحدودة. فشمسُنا مثلا وهي أكبر بمليون مرة من كرتنا الأرضية، وأقدم منها بمليون سنة، ما هي إلّا مصباحٌ دائم، وموقد مستمر لدار ضيافة الرحمن. فلأَجل إدامة اتّقادها واشتعالها وتسجيرها كل يوم يلزم وقودا بقدر بحار الأرض، وفحما بقدر جبالها، وحطبا بقدر أضعاف أضعاف حجم الأرض، ولكن الذي يشعلها -ويشعل جميع النجوم الأخرى أمثالها- بلا وقود ولا فحم ولا زيت ودون انطفاء ويسيّرها بسرعة عظيمة معا دون اصطدام، إنما هي قدرةٌ لا نهاية لها وسلطنةٌ عظيمة لا حدود لها.. فهذا الكون العظيم وما فيه من مصابيح مضيئة، وقناديل متدلية يبين بوضوح -وَفْقَ مقاييس «علم الكهرباء» الذي قرأتموه أو ستقرؤونه- سلطانَ هذا المعرض العظيم والمهرجان الكبير، ويعرّف منوّرَه ومدبّرَه البديع

وصانعه الجليل، بشهادة هذه النجوم المتلألئة، ويحبّبه إلى الجميع بالتحميد والتسبيح والتقديس بل يسوقهم إلى عبادته سبحانه.

ومثلا: لو كان هناك كتاب كُتِبَ في كل سطر منه كتابٌ بخط دقيق وكُتِبَ في كل كلمة من كلماته سورةٌ قرآنية، وكانت جميعُ مسائله ذات مغزى ومعنى عميق، وكلُّها يؤيد بعضُها البعض، فهـذا الكتاب العجيب يُبيِّنُ بلا شك مهارةَ كاتبه الفائقة، وقدرة مؤلّفه الكاملة. أي إن مثل هذا الكتاب يُعرّف كاتبَه ومصنّفه تعريفا يضاهي وضوح النهار، ويبين كمـالَه وقـدرتَه، ويثير من الإعجاب والتقدير لدى الناظرين إليه ما لا يملكون معه إلّا ترديدَ: «تبارك الله، سبحان الله، ما شاء الله!» من كلمات الاستحسان والإعجاب؛ كذلك هذا الكتاب الكبير للكون الذي يُكتَب في صحيفة واحدة منه، وهي سطح الأرض، ويُكتبُ في ملزمة واحدة منه، وهي الربيع، ثلثمائة ألف نوع من الكتب المختلفة، وهي طوائف الحيوانات وأجناس النباتات، كل منها بمثابة كتاب.. يُكتب كل ذلك معا ومتداخلا بعضها ببعض بلا اختلاط ولا خطأ ولا نسيان، وفي منتهى الانتظام والكمال، بل يُكتب في كل كلمة منه كالشجرة قصيدةٌ كاملة رائعة، وفي كل نقطة منه كالبذرة فهرسُ كتابٍ كامل.

فكما أَنّ هذا مشاهَد وماثل أمامنا، ويُرينا بالتأكيد أن وراءه قلما سيالا يسطر، فلكم إذن أن تقدروا مدى دلالة كتاب الكون الكبير العظيم الذي في كل كلمة منه معان جمّة وحِكَمٌ شتى، ومدى دلالة هذا القرآن الأكبر المجسم وهو العالم، على بارئه سبحانه وعلى كاتبه جل وعلا، قياسا إلى ذلك الكتاب المذكور في المثال. وذلك بمقتضى ما تقرؤونه من «علم حكمة الأشياء» أو «فن القراءة والكتابة»، وتناولوه بمقياس أكبر، وبالنظرة الواسعة إلى هذا الكون الكبير. وبذلك تفهمون كيف يُعرّف الخالقَ العظيم بـ«**الله أكبر**» وكيف يعلّم التقديس بـ«**سبحان الله**» وكيف يحبّب الله سبحانه إلينا بثناء «**الحمد لله**».

وهكذا، فإن كل علم من العلوم العديدة جدا يدل على خالق الكون ذي الجلال -قياسا على ما سبق- ويعرّفه لنا سبحانه بأسمائه الحسنى، ويعلّمه إيانا بصفاته الجليلة وكمالاته. وذلك بما يملك من مقاييس واسعة ومرايا خاصة وعيون حادة باصرة ونظرات ذات عبرة.

فقلت لأولئك الطلبة الشباب: إن حكمة تكرار القرآن الكريم من: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ و ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إنما هي لأجل الإرشاد

إلى هذه الحقيقة المذكورة، وتلقين هذا البرهان الباهر للتوحيد، ولأجل تعريفنا بخالقنا العظيم سبحانه.

فقالوا: شكرا لربنا الخالق بغير حدّ، على هذا الدرس الذي هو الحقيقة السامية عينُها، فجزاك الله عنا خير الجزاء ورضي عنك.

قلت: إن الإنسان ماكنة حيوية، يتألم بآلاف الأنواع من الآلام، ويتلذذ بآلاف الأنواع من اللذائذ، ومع أنه في منتهى العجز، فإن له من الأعداء ما لا يحد سواء الماديين أو المعنويين، ومع أنه في غاية الفقر فإن له رغبات باطنة وظاهرة لا تُحصر؛ فهو مخلوق مسكين يتجّرع آلام صفعات الزوال والفراق باستمرار. فرغم كل هذا فإنه يجد بانتسابه إلى السلطان ذي الجلال بالإيمان والعبودية مستندا قويا، ومرتكزا عظيما يحتمي إليه في دفع أعدائه كافة، ويجد فيه كذلك مدارَ استمدادٍ يستغيث به لقضاء حاجاته وتلبية رغباته وآماله كافة. فكما ينتسب كلٌّ إلى سيّده ويفخر بشرف انتسابه إليه ويعتز بمكانة منـزلته لديه، كذلك فإن انتساب الإنسان -بالإيمان- إلى القدير الذي لا نهاية لقدرته، وإلى السلطان الرحيم ذي الرحمة الواسعة، ودخولَه في عبوديته بالطاعة والشكران، يبدّل الأجَل والموتَ من الإعدام

الأبدي إلى تذكرة مرور ورخصة إلى العالم الباقي! فلكم أنْ تقدّروا كم يكون هذا الإنسان متلذذا بحلاوة العبودية بين يدي سيده، وممتنا بالإيمان الذي يجده في قلبه، وسعيدا بأنوار الإسلام، ومفتخرا بسيّده القدير الرحيم شاكرا له نعمة الإيمان والإسلام.

ومثلما قلت ذلك لإخواني الطلبة، أقول كذلك للمسجونين: إن مَن عرف الله وأطاعه سعيدٌ ولو كان في غياهب السجن، ومَن غَفَلَ عنه ونَسِيَه شقيٌّ ولو كان في قصور مشيَّدة. فلقد صرخ مظلوم ذاتَ يوم بوجه الظالمين وهو يعتلي منصة الإعدام فرِحا جذلا وقائلا:

«إنني لا أنتهي إلى الفناء ولا أُعدمُ، بل أُسرّحُ من سجن الدنيا طليقا إلى السعادة الأبدية، ولكني أَراكم أنتم محكومين عليكم بالإعدام الأبدي لما ترون الموت فناءً وعدما. فأنا إذن قد ثأرت لنفسي منكم». فَسلَّم روحَه وهو قرير العين يردد: «**لا إله إلّا الله**».

﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

* * *

القطعة الأولى من ذيل رسالة الحشر

ضرورة الإيمان بالآخرة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الروم:١٧-٢٧).

سنُبيّن في هذا «الشعاع التاسع» برهانا قويا، وحجةً كبرى، لما تبينه هذه الآيات الكريمة من محور الإيمان وقطبه، وهو الحشر، ومن البراهين السامية المقدسة الدالة عليه.

وإنه لعناية ربانية لطيفة أَنْ كَتَبَ «سعيد القديم» قبل ثلاثين سنة في ختام مؤلَّفه «محاكمات» الذي كتبه مقدمة لتفسير «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز» ما يأتي:

المقصد الثاني: سوف يفسر آيتين تبيّنان الحشر وتشيران إليه.

ولكنه ابتدأ بـ: «**نخو**[1] **بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيم**». وتوقف، ولم تتح له الكتابة.

فألف شكر وشكر للخالق الكريم وبعدد دلائل الحشر

(١) نخو: كلمة كردية باللهجة الكرمانجية الشمالية، تعني: فإذن.

وأماراته أن وفّقني لبيان ذلك التفسير بعد ثلاثين سنة. فأنعمَ سبحانه وتعالى عليّ بتفسير الآية الأولى:

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الروم:٥٠) وذلك بعد نحو عشر سنوات، فأصبحت «الكلمة العاشرة» و«الكلمة التاسعة والعشرين» وهما حجتان ساطعتان قويتان أخرستا المنكرين الجاحدين..

وبعد حوالي عشر سنوات من بيان ذلك الحصن الحصين للحشر، أفاض عليَّ سبحانه وتعالى وأنعم بتفسير الآيات المتصدرة لهذا الشعاع، فكان هذه الرسالة.

فهذا «الشعاع التاسع» عبارة عن تسعة مقامات سامية مما أشارت إليها الآيات الكريمة مع مقدمة مهمة.

المقدمة

هذه المقدمة نقطتان: سنذكر أولا وباختصار نتيجةً واحدة جامعة من بين النتائج الحياتية والفوائد الروحية لعقيدة الحشر، مبينين مدى ضرورة هذه العقيدة للحياة الإنسانية ولاسيما الاجتماعية. ونورد كذلك حجة كلية واحدة -من بين الحجج العديدة لعقيدة الإيمان بالحشر- مبينين أيضا مدى بداهتها ووضوحها حيث لا يداخلها ريب ولا شبهة.

النقطة الأولى

سنشير إلى أربعة أدلة على سبيل المثال وكنموذج قياسي من بين مئات الأدلة على أن عقيدة الآخرة هي أس الأساس لحياة الإنسان الاجتماعية والفردية، وأساس جميع كمالاته ومُثله وسعادته.

الدليل الأول: إن الأطفال الذين يمثلون نصف البشرية، لا يمكنهم أن يتحمّلوا تلك الحالات التي تبدو مؤلمةً ومفجعة أمامَهم من حالات الموت والوفاة إلّا بما يجدونه في أنفسهم وكيانهم الرقيق اللطيف من القوة المعنوية الناشئة من «الإيمان بالجنة»، ذلك الإيمان الذي

يفتح باب الأمل المشرق أمام طبائعهم الرقيقة التي لا تتمكن من المقاومة والصمود وتبكي لأدنى سبب. فيتمكنون به من العيش بهناء وفرح وسرور. فيحاور الطفلُ المؤمنُ بالجنة نفسَه: «أنَّ أخي الصغير أو صديقي الحبيب الذي توفي، أصبح الآن طيرا من طيور الجنة، فهو إذن يسرح من الجنة حيث يشاء، ويعيش أفضل وأهنأ منّا». وإلّا فلولا هذا الإيمان بالجنة لهدم الموتُ الذي يصيب أطفالا أمثاله -وكذلك الكبار- تلك القوة المعنوية لهؤلاء الذين لا حيلة لهم ولا قوة، ولحطّم نفسياتهم، ولدمّر حياتهم ونغَصها فتبكي عندئذٍ جميع جوارحهم ولطائفهم من روح وقلب وعقل مع بكاء عيونهم. فإما أن تموت أحاسيسهم وتغلُظ مشاعرهم أو يصبحوا كالحيوانات الضالة التعسة.

الدليل الثاني: إن الشيوخ الذين هم نصف البشرية، إنما يتحملون ويصبرون وهم على شفير القبر بـ«الإيمان بالآخرة». ولا يجدون الصبر والسلوان من قرب انطفاء شعلة حياتهم العزيزة عليهم، ولا من انغلاق باب دنياهم الحلوة الجميلة في وجوههم إلّا في ذلك الإيمان. فهؤلاء الشيوخ الذين عادوا كالأطفال وأصبحوا مرهفي الحس

في أرواحهم وطبائعهم، إنما يقابِلون ذلك اليأس القاتل الأليم الناشيء من الموت والزوال، ويصبرون عليه بالأمل في الحياة الآخرة. وإلّا فلولا هذا الإيمان بالآخرة لشعر هؤلاء الآباء والأمهات -الذين هم أجدر بالشفقة والرأفة والذين هم في أشد الحاجة إلى الاطمئنان والسكينة والحياة الهادئة- ضراما روحيا واضطرابا نفسيا وقلقا قلبيا، ولضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، ولتحولت سجنا مظلما رهيبا، ولانقلبت الحياة إلى عذاب أليم قاسٍ.

الدليل الثالث: إن الشباب والمراهقين الذين يمثلون محور الحياة الاجتماعية لا يهدّئ فورةَ مشاعرهم، ولا يمنعهم من تجاوز الحدود إلى الظلم والتخريب، ولا يمنع طيش أنفسهم ونزواتها، ولا يؤمّن السيرَ الأفضل في علاقاتهم الاجتماعية إلّا الخوفُ من نار جهنم. فلولا هذا الخوف من عذاب جهنم لقلَّب هؤلاء المراهقون الطائشون الثملون بأهوائهم الدنيا إلى جحيم تتأجج على الضعفاء والعجائز، حيث «الحُكم للغالب» ولحوّلوا الحياة الإنسانية السامية إلى حياة حيوانية سافلة.

الدليل الرابع: إن الحياة العائلية هي مركزُ تجمّعِ الحياة الدنيوية ولولبها وهي جنة سعادتها وقلعتها الحصينة

وملجأها الأمين. وإن بيت كل فرد هو عالَمه ودنياه الخاصة. فلا سعادة لروح الحياة العائلية إلّا بالاحترام المتبادل الجاد والوفاء الخالص بين الجميع، والرأفة الصادقة والرحمة التي تصل إلى حد التضحية والإيثار. ولا يحصل هذا الاحترام الخالص والرحمة المتبادَلة الوفية إلّا بالإيمان بوجودِ علاقاتِ صداقة أبدية، ورفقةٍ دائمة، ومعيّة سرمدية، في زمن لا نهاية له، وتحت ظلِ حياة لا حدود لها، تربطها علاقاتُ أبوّةٍ محترمة مرموقة، وأخوةٍ خالصة نقية، وصداقةٍ وفيّة نزيهة، حيث يحدّث الزوجُ نفسه: «إن زوجتي هذه رفيقة حياتي وصاحبتي في عالم الأبد والحياة الخالدة، فلا ضير إن أصبحت الآن دميمة أو عجوزا، إذ إن لها جمالا أبديا سيأتي، لذا فأنا مستعد لتقديم أقصى ما يستوجبه الوفاء والرأفة، وأضحّي بكل ما تتطلبه تلك الصداقة الدائمة».. وهكذا يمكن أن يُكنّ هذا الرجل حبا ورحمة لزوجته العجوز كما يكنّه للحور العين. وإلّا فإنّ صحبة وصداقة صورية تستغرق ساعة أو ساعتين ومن ثم يعقبها فراق أبدي ومفارقة دائمة لهي صحبة وصداقة ظاهرية لا أساس لها ولا سند. ولا يمكنها أن تعطي إلّا رحمةً مجازية، واحتراما مصطنعا، وعطفا حيوانيَّ المشاعرِ،

فضلا عن تدخُل المصالح والشهوات النفسانية وسيطرتها على تلك الرحمة والاحترام فتنقلب عندئذٍ تلك الجنة الدنيوية إلى جحيم لا يطاق.

وهكذا فإن نتيجة واحدة للإيمان بالحشر من بين مئات النتائج التي تتعلق بالحياة الاجتماعية للإنسان وتعود إليها، والتي لها مئات الأوجه والفوائد، إذا ما قيست على تلك الدلائل الأربعة المذكورة آنفا، يُدرك أن وقوع حقيقة الحشر وتحققَها قطعي كقطعية ثبوت حقيقة الإنسان السامية وحاجاته الكلية. بل هي أظهر دلالة من حاجة المعدة إلى الأطعمة والأغذية، وأوضح شهادةً منها. ويمكن أن يقدّر مدى تحققها تحققا أعمق وأكثر إذا ما سلبت الإنسانية من هذه الحقيقة (الحشر) ،حيث تصبح ماهيتها التي هي سامية ومهمة وحيوية بمثابة جيفة نتنة ومأوى الميكروبات والجراثيم.

فليلق السمعَ علماءُ الاجتماع والسياسة والأخلاق من المعنيين بشؤون الإنسان وأخلاقه واجتماعه، وليأتوا ويبينوا بماذا سيملأون هذا الفراغ؟ وبماذا سيداوون ويضمدون هذه الجروح الغائرة العميقة؟!

النقطة الثانية

تُبين هذه النقطة بإيجاز شديد برهانا واحدا -من بين البراهين التي لا حصر لها- على حقيقة الحشر وهو ناشئ من خلاصةِ شهادةِ سائر الأركان الإيمانية. وعلى النحو الآتي:

إن جميع المعجزات الدالة على رسالة سيدنا محمد ﷺ مع جميع دلائل نبوته وجميع البراهين الدالة على صدقه، تشهد بمجموعها معا، على حقيقة الحشر، وتدل عليها وتثبتها، لأن دعوته ﷺ طوال حياته المباركة قد انصبّت بعد التوحيد على الحشر. وإن جميع معجزاته وحججه الدالة على صدق الأنبياء عليهم السلام -وتَحمِل الآخرين على تصديقهم- تشهد على الحقيقة نفسها، وهي الحشر. وكذا شهادة «الكتب المنـزلة» التي رقّت الشهادةَ الصادرةَ من «الرسل الكرام» إلى درجة البداهة، تشهدان على الحقيقة نفسها. وعلى النحو الآتي:

فالقرآن الكريم -ذو البيان المعجز- يشهد بجميع معجزاته وحججه وحقائقه -التي تُثبت أحقيتَه- على حدوث الحشر ويثبته، حيث إن ثُلث القرآن بأكمله، وأوائلَ أغلبِ السور القصار، آياتٌ جلية على الحشر.

أي إن القرآن الكريم ينبئ عن الحقيقة نفسِها بآلاف من آياته الكريمة صراحة أو إشارةً ويثبتها بوضوح ويظهرها بجلاء. فمثلا: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير:١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج:١) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (الزلزلة:١) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ (الانفطار:١) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ (الانشقاق:١) ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ (النبأ:١)

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ (الغاشية:١).

فيثبت القرآن الكريم بهذه الآيات وأمثالها في مفتتح ما يقارب أربعين سورة أن الحشر لا ريب فيه، وأنه حَدثٌ في غاية الأهمية في الكون، وأن حدوثه ضروري جدا ولابد منه، ويبين بالآيات الأخرى دلائل مختلفة مقنعة على تلك الحقيقة.

تُرى إنْ كان كتابٌ تثمر إشارةٌ واحدةٌ لآيةٍ من آياتِه تلك الحقائقَ العلمية والكونية المعروفة بالعلوم الإسلامية، فكيف إذن بشهادة آلاف من آياته ودلائله التي تبين الإيمان بالحشر كالشمس ساطعة؟ ألا يكون الجحود بهذا الإيمان كإنكار الشمس بل كإنكار الكائنات قاطبة؟! ألا يكون ذلك باطلا ومحالا في مائة محال؟!

تُرى هل يمكن أن يوصَم آلاف الوعد والوعيد لكلامِ سلطان عزيز عظيم بالكذب أو أنها بلا حقيقة، في حين قد يخوض الجيش غمار الحرب لئلا تُكذَّب إشارةٌ صادرة من سلطان. فكيف بالسلطان المعنوي العظيم الذي دام حكمه وهيمنته ثلاثة عشر قرنا دون انقطاع، فربّى ما لا تعد من الأرواح والعقول والقلوب والنفوس، وزكّاها وأدارها على الحق والحقيقة، ألا تكفي إشارة واحدة منه لإثبات حقيقة الحشر؟ علما أن فيه آلافَ أوجه الصراحة الواضحة المثبتة! أليس الذي لا يدرك هذه الحقيقة الواضحة أحمقَ جاهلا؟ ألا يكون من العدالة المحضة أن تكون النار مثواه؟

ثم إن الصحف السماوية والكتب المقدسة جميعها التي حكَمت كل منها لفترة من العصور والأزمنة، قد صَدّقت بآلاف من الدلائل دعوى القرآن الكريم في حقيقة الحشر مع أن بيانها لها مختصر وموجز، وذلك بمقتضى زمانها وعصرها، تلك الحقيقة القاطعة التي بيّنها القرآن الكريم الذي ساد حكمه على العصور جميعها، وهيمن على المستقبل كله، بيّنها بجلاء وأفاض في إيضاحها.

يُدرج هنا نصُّ ما جاء في آخر رسالةِ «المناجاة» انسجاما مع البحث، تلك الحجة القاطعة الملخَّصة للحشر،

والناشئة من شهادة سائر الأركان الإيمانية ودلائلها على الإيمان باليوم الآخر، ولاسيما الإيمان بالرسل والكتب، والتي تبدد الأوهام والشكوك، حيث جاءت بأسلوب موجز، وعلى صورةِ مناجاةٍ.

«**يا ربي الرحيم**. لقد أدركتُ بتعليم الرسول ﷺ وفهمتُ من تدريس القرآن الحكيم، أن الكتبَ المقدسة جميعها وفي مقدمتها القرآن الكريم، والأنبياء عليهم السلام جميعهم وفي مقدمتهم الرسول الأكرم ﷺ، يدلّون ويشهدون ويشيرون بالإجماع والاتفاق إلى أن تجليات الأسماء الحسنى -ذات الجلال والجمال- الظاهرةَ آثارُها في هذه الدنيا، وفي العوالم كافة، ستدوم دواما أسطعَ وأبهرَ في أبد الآباد.. وأن تجلياتها -ذات الرحمة- وآلاءها المشاهَدة نماذجُها في هذا العالم الفاني، ستثمر بأبهى نور وأعظم تألق، وستبقى دوما في دار السعادة.. وأن أولئك المشتاقين الذين يتملّونها -في هذه الحياة الدنيا القصيرة- بلهفةٍ وشوق سيرافقونها بالمحبة والودّ، ويصحبونها إلى الأبد، ويَظلون معها خالدين.. وأن جميع الأنبياء وهم ذوو الأرواح النيرة وفي مقدمتهم الرسول الأكرم ﷺ، وجميع الأولياء وهم أقطاب ذوي القلوب المنورة، وجميع الصديقين وهم منابع العقول

النافذة النيّرة، كل أولئك يؤمنون إيمانا راسخا عميقا بالحشر ويشهدون عليه ويبشِّرون البشريةَ بالسعادة الأبدية، وينذرون أهل الضلالة بأن مصيرهم النار، ويبشرون أهل الهداية بأن عاقبتهم الجنة، مستندين إلى مئات المعجزات الباهرة والآيات القاطعة، وإلى ما ذكرتَه أنت يا ربي مرارا وتكرارا في الصحف السماوية والكتب المقدسة كلها من آلاف الوعد والوعيد. ومعتمدين على عزة جلالك وسلطان ربوبيتك، وشؤونك الجليلة، وصفاتك المقدسة كالقدرة والرحمة والعناية والحكمة والجلال والجمال وبناءً على مشاهداتهم وكشفياتهم غير المعدودة التي تنبئ عن آثار الآخرة ورشحاتها. وبناءً على إيمانهم واعتقادهم الجازم الذي هو بدرجة علم اليقين وعين اليقين.

فيا قدير ويا حكيم ويا رحمن ويا رحيم ويا صادق الوعد الكريم، ويا ذا العزة والعظمة والجلال ويا قهار ذا الجلال. أنت مقدّس ومنـزّهٌ، وأنت متعال عن أن تَصِمَ بالكذب كلَّ أوليائِك وكل وعودك وصفاتك الجليلة وشؤونك المقدسة.. فتكذّبَهم، أو تحجب ما يقتضيه قطعا سلطانُ ربوبيتك بعدم استجابتك لتلك الأدعية الصادرة من عبادك الصالحين الذين أحببتهم وأحبّوك، وحبّبوا أنفسهم إليك

بالإيمان والتصديق والطاعة، فأنت منـزّه ومتعال مطلق عن أن تصدِّق أهلَ الضلالة والكفر في إنكارهم الحشر، أولئك الذين يتجاوزون على عظمتك وكبريائك بكفرهم وعصيانهم وتكذيبهم لك ولوعودك، والذين يستخفّون بعزة جلالك وعظمة ألوهيتك ورأفة ربوبيتك.

فنحن نقدّس بلا حد ولا نهاية عدالتَك وجمالك المطلقَين ورحمتك الواسعة وننزّهها من هذا الظلم والقبح غير المتناهي.. ونعتقد ونؤمن بكل ما أوتينا من قوة بأن الآلاف من الرسل والأنبياء الكرام، وبما لا يعدّ ولا يحصى من الأصفياء والأولياء الذين هم المنادون إليك هم شاهدون بحق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين على خزائن رحمتك الأخروية وكنوز إحساناتك في عالم البقاء، وتجليات أسمائك الحسنى التي تنكشف كليا في دار السعادة.. ونؤمن أن هذه الشهادة حق وحقيقة، وأن إشاراتهم صدق وواقع، وأن بشاراتهم صادقة وواقعة.. فهؤلاء جميعا يؤمنون بأن هذه الحقيقة الكبرى (أي الحشر) شعاع عظيم من اسم «الحق» الذي هو مرجع جميع الحقائق وشمسها، فيرشدون عبادك -بإذن منك- ضمن دائرة الحق، ويعلمونهم بعين الحقيقة.

فيا ربي! بحق دروس هؤلاء، وبحرمة إرشاداتهم، آتنا إيمانا كاملا وارزقنا حسن الخاتمة، لنا ولطلاب النور، واجعلنا أهلا لشفاعتهم... آمين».

وهكذا فإن الدلائل والحجج التي تُثبت صدق القرآن الكريم بل جميعِ الكتب السماوية، وإن المعجزات والبراهين التي تثبت نبوة حبيب الله بل الأنبياءِ جميعهم، تثبت بدورها أهم ما يدعون اليه، وهو تحقق الآخرة وتدل عليها. كما أن أغلب الأدلة والحجج الشاهدة على وجوب واجب الوجود ووحدته سبحانه، هي بدورها شاهدة على دار السعادة وعالم البقاء التي هي مدار الربوبية والألوهية وأعظم مظهر لهما، وهي شاهدة على وجود تلك الدار وانفتاح أبوابها -كما سيُبين في المقامات الآتية- لأن وجوده سبحانه وتعالى، وصفاته الجليلة، وأغلب أسمائه الحسنى، وشؤونه الحكيمة، وأوصافه المقدسة أمثال الربوبية والألوهية والرحمة والعناية والحكمة والعدالة تقتضي جميعها الآخرة وتلازمها، بل تستلزم وجود عالم البقاء بدرجة الوجوب وتطلب الحشر والنشور للثواب والعقاب بدرجة الضرورة أيضا.

نعم، ما دام الله موجودا، وهو واحد أزلي أبدي، فلابد أن محور سلطان ألوهيته وهو الآخرة، موجود أيضا..

وما دامت الربوبية المطلقة تتجلى في هذه الكائنات ولاسيما في الأحياء وهي ذاتُ جلال وعظمة وحكمة ورأفة ظاهرة واضحة، فلابد أن هناك سعادة أبدية تنفي عن الربوبية المطلقة أيَّ ظنٍ بكونها تترك الخلق هَمَلا دون ثواب، وتبرئ الحكمة من العبث، وتصون الرأفة من الغدر. أي إن تلك الدار موجودة قطعا ولابد من الدخول فيها.

وما دامت هذه الأنواع من الإنعام والإحسان واللطف والكرم والعناية والرحمة مشاهَدة وظاهرة أمام العقول التي لم تنطفئ، وأمام القلوب التي لم تمت، وتدلّنا على وجوب وجودِ رب رحمن رحيم وراء الحجاب، فلابد من حياة باقية خالدة، لتنقذ الإنعامَ من الاستهزاء أي يأخذ الإنعام مداه، وتصون الإحسان من الخداع ليستوفي حقيقته، وتنقذ العناية من العبث لتستكمل تحققها، وتنجي الرحمة من النقمة فيتم وجوهها، وتبرئ اللطف والكرم من الإهانة ليفيضا على العباد. نعم، إن الذي يجعل الإحسان إحسانا حقا، والنعمة نعمةً حقا، هو وجود حياةٍ باقيةٍ خالدةٍ في عالم البقاء والخلود.. نعم، لابد أن يتحقق هذا.

وما دام قلم القدرة الذي يَكتب في فصل الربيع وفي صحيفة ضيقة صغيرة، مائةَ ألف كتاب، كتابةً متداخلة

بلا خطأ ولا نصب ولا تعب، كما هو واضح جليٌّ أمام أعيننا. وأن صاحب ذلك القلم قد تعهّد ووعد مائة ألف مرة لأكتبنّ كتابا أسهل من كتاب الربيع المكتوب أمامكم ولأكتبنّه كتابةً خالدة، في مكان أوسع وارحبَ وأجملَ من هذا المكان الضيق المختلط المتداخل.. فهو كتاب لا يفنى أبدا، ولأجعلنّكم تقرؤونه بحيرة وإعجاب! وأنه سبحانه يذكر ذلك الكتاب في جميع أوامره، أي إن أصول ذلك الكتاب قد كُتبت بلا ريب، وستُكتب حواشيه وهوامشه بالحشر والنشور، وستدوّن فيه صحائف أعمال الجميع.

وما دامت هذه الأرض قد أصبحت ذات أهمية عظمى من حيث احتواؤها على كثرة المخلوقات، ومئات الألوف من أنواع ذوي الحياة والأرواح المختلفة المتبدلة، حتى صارت قلب الكون وخلاصته، ومركزه وزبدته ونتيجته وسبب خلقه. فذُكرت دائما صنوا للسماوات كما في: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في جميع الأوامر السماوية.

وما دام ابن آدم يحكم في شتى جهات هذه الأرض -التي لها هذه الماهيات والخواص- ويتصرف في أغلب مخلوقاتها مسخِّرا أكثر الأحياء له، جاعلا أكثر المصنوعات تحوم حوله وفق مقاييسه وهواه، وحسب حاجاته الفطرية،

وينظمها ويعرضها ويزيّنها، وينسّق الأنواع العجيبة منها في كل مكان بحيث لا يلفت نظر الإنس والجن وحدهم، بل يلفت أيضا نظر أهل السماوات والكون قاطبة، بل حتى نظر مالك الكون، فنال الإعجاب والتقدير والاستحسان، وأصبحت له -من هذه الجهة- أهمية عظيمة، وقيمة عالية، فأظهر بما أوتي من علم ومهارة أنه هو المقصود من حكمة خلق الكائنات، وأنه هو نتيجتها العظمى وثمرتها النفيسة، ولا غرو فهو خليفة الأرض.. وحيث إنه يعرض صنائع الخالق البديعة، وينظّمها بشكل جميل جذاب في هذه الدنيا، فقد أُجّل عذابه على عصيانه وكفره، وسُمح له بالعيش في الدنيا وأُمهل ليقوم بهذه المهمة بنجاح.

وما دام لابن آدم -الذي له هذه الماهية والمزايا خلقةً وطبعا، وله حاجات لا تُحدّ مع ضعفه الشديد، وآلام لا تُعدّ مع عجزه الكامل- ربٌّ قدير، له القدرة والرأفة المطلقة مما يجعل هذه الأرض الهائلة العظيمة مخزنا عظيما لأنواع المعادن التي يحتاجها الإنسان، ومستودعا لأنواع الأطعمة الضرورية له، وحانوتا للأموال المختلفة التي يرغبها، وأنه سبحانه ينظر إليه بعين العناية والرأفة ويربيه ويزوده بما يريد.

وما دام الرب سبحانه -كما في هذه الحقيقة- يحبّ الإنسان، ويحبّب نفسه إليه، وهو باقٍ، وله عوالم باقية، ويُجري الأمور وفق عدالته، ويعمل كل شيء وفق حكمته، وأن عظمة سلطان هذا الخالق الأزلي وسرمدية حاكميته لا تحصرهما هذه الدنيا القصيرة، ولا يكفيهما عمر الإنسان القصير جدا، ولا عمر هذه الأرض المؤقتة الفانية. حيث يظل الإنسان دون جزاء في هذه الدنيا لما يرتكبه من وقائع الظلم، وما يقترفه من إنكار وكفر وعصيان، تجاه مولاه الذي أنعم عليه ورباه برأفة كاملة وشفقة تامة، مما ينافي نظام الكون المنسّق، ويخالف العدالة والموازنة الكاملة التي فيها، ويخالف جماله وحُسنه، إذ يقضي الظالم القاسي حياته براحة، بينما المظلوم البائس يقضيها بشظف من العيش. فلا شك أن ماهية تلك العدالة المطلقة -التي يشاهد آثارها في الكائنات- لا تقبل أبدا، ولا ترضى مطلقا، عدم بعث الظالمين العتاة مع المظلومين البائسين الذين يتساوون معا أمام الموت.

وما دام مالك الملك قد اختار الأرض من الكون، واختار الإنسان من الأرض، ووهب له مكانة سامية، وأولاه الاهتمام والعناية، واختار الأنبياء والأولياء والأصفياء

من بين الناس، وهم الذين انسجموا مع المقاصد الربانية، وحبّبوا أنفسهم إليه بالإيمان والتسليم، وجعلهم أولياءه المحبوبين المخاطبين له، أكرمهم بالمعجزات والتوفيق في الأعمال وأدّب أعداءهم بالصفعات السماوية، واصطفى من بين هؤلاء المحبوبين إمامَهم ورمْزَ فخرهم واعتزازهم، ألا وهو محمد ﷺ. فنوّر بنوره نصف الكرة الأرضية ذات الأهمية، وخُمس البشرية ذوي الأهمية، طوال قرون عدة، حتى كأن الكائنات قد خُلقت لأجله، لبروز غاياتها جميعا به، وظهورها بالدين الـذي بُعث به، وانجلائها بالقرآن الـذي أُنزل عليه. فبينما يستحق أن يكافَأ على خدماته الجليلة غير المحدودة بعمرٍ مديد غيـر محدود وهو أهـلٌ له، إلّا أنه قضى عمرا قصيرا وهو ثلاث وستون سنة في مجاهدة ونصَب وتعب! فهل يمكن، وهل يعقل مطلقا، وهل هناك أي احتمال أن لا يُبـعَث هو وأمثاله وأحبـاؤه معا؟! وأن لا يكون الآن حيا بروحه؟! وأن يفنى نهائيا ويصير إلى العدم؟ كلا.. ثم كلا.. وحاشاه ألف ألف مرة. نعم، إن الكون وجميع حقائق العالم يدعو إلى بعثه ويريده ويطلب من رب الكون حياتَه.

ولقد بَيّنتْ رسالة «الآية الكبرى» وهي «الشعاع السابع» وأَثبتت بثلاثة وثلاثين إجماعا عظيما، كل منه كالجبل الأشم

في قوة حجّته، بأن هذا الكون لم يصدر إلّا من يدٍ واحدٍ أحد، وليس مُلكا إلّا لواحد أحد. فأظهرت التوحيدَ -بتلك البراهين والمراتب بداهةً- أنه محور الكمال الإلهي وقطبه. وبيّنت أنه بالوحدة والأحدية يتحول جميعُ الكون بمثابة جنودٍ مستنفرين لذلك الواحد الأحد، وموظفين مسخّرين له. وبمجيء الآخرة ووجودها تتحقق كمالاته وتصان من السقوط وتسود عدالته المطلقة، وتنجو من الظلم، وتُنـزّه حكمته العامة وتبرأ من العبث والسفاهة، وتأخذ رحمتُه الواسعة مداها، وتُنقذ من التعذيب المشين. وتبدو عزته وقدرته المطلقتان وتُنقَذان من العجز الذليل. وتتقدّس كل صفة من صفاته سبحانه وتتجلى منـزّهة جليلة.

فلابد ولا ريب مطلقا أن القيامة ستقوم، وأن الحشر والنشور سيحدث، وأن أبواب دار الثواب والعقاب ستُفتح، بمقتضى ما في حقائق هذه الفقرات الثمانية المذكورة المبتدئة بـ«ما دام» التي هي مسألة دقيقة ونكتة ذات مغزى لطيف من بين مئات النكات الدقيقة للإيمان بالله؛ وذلك: كي تتحقق أهمية الأرض ومركزيتها، وأهمية الإنسانية ومكانتها.. ولكي تتقرر عدالة رب الأرض والإنسان وحكمته ورحمته وسلطانه.. ولكي ينجو الأولياء والأحبّاء

الحقيقيون والمشتاقون إلى الرب الباقي من الفناء والإعدام الأبدي.. ولكي يرى أعظمُهم وأحبّهم وأعزّهم ثوابَ عمله، ونتائج خدماته الجليلة التي جعلت الكائنات في امتنان ورضى دائمين.. ولكي يتقدس كمال السلطان السرمدي من النقص والتقصير، وتتنـزّه قدرتُه من العجز، وتبرأ حكمتُه من السفاهة، وتتعالى عدالته عن الظلم.

والخلاصة: ما دام الله جل جلاله موجودا فإن الآخرة لا ريب فيها قطعا.

وكما تُثبت الأركان الإيمانية الثلاثة -المذكورة آنفا- الحشرَ بجميع دلائلها وتشهد عليه، كذلك يستلزم الركنان الإيمانيان «وبملائكته، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى» أيضا الحشرَ، ويشهدان شهادةً قوية على العالم الباقي ويدلان عليه على النحو الآتي:

إن جميع الدلائل والمشاهدات والمكالمات الدالة على وجود الملائكة ووظائفِ عبوديتهم، هي بدورها دلائلُ على وجود عالَم الأرواح وعالم الغيب وعالم البقاء وعالم الآخرة ودار السعادة والجنة والنار اللتين ستعمران بالجن والإنس، لأن الملائكة يمكنهم -بإذن إلهيّ- أن يشاهدوا هذه العوالم ويدخلوها، لذا فالملائكة المقربون يخبرون بالاتفاق

-كجبريل عليه السلام الذي قابل البشر- بوجود تلك العوالم المذكورة وتجوالهم فيها. فكما أننا نعلم بديهة وجود قارة أمريكا التي لم نرها من كلام القادمين منها، كذلك يكون الإيمان بديهة بما أخبرت به الملائكة -وهو بقوةِ مائةِ تواتر- عن وجود عالم البقاء ودار الآخرة والجنة والنار... وهكذا نؤمن ونصدق.

وكذلك الدلائل التي تثبت «الإيمان بالقدر» -كما جاءت في رسالة القدر (الكلمة السادسة والعشرين)- هي بدورها دلائل على الحشر ونشر الصحف وموازنة الأعمال عند الميزان الأكبر، ذلك لأن ما نراه أمام أعيننا من تدوينِ مقدّرات كل شيء على ألواح النظام والميزان، وكتابةِ أحداث الحياة ووقائعها لكل ذي حياة في قواه الحافظة، وفي حبوبه ونواه، وفي سائر الألواح المثالية. وتثبيتِ دفاتر الأعمال لكل ذي روح ولاسيما الإنسان، وإقرارها في ألواح محفوظة.. كل هذا القدر من القَدَر المحيط، ومن التقدير الحكيم، ومن التدوين الدقيق، ومن الكتابة الأمينة، لا يمكن أن يكون إلّا لأجل محكمة كبرى، ولنيل ثواب وعقاب دائمين. وإلّا فلا يبقى مغزى ولا فائدة أبدا لذلك التدوين المحيط والكتابة التي تسجل وتحفظ أدق

الأمور. فيقع إذن ما هو خلاف الحكمة والحقيقة. أي إنْ لم يَحدث الحشر فإن جميع معاني كتاب الكون الحقة التي كتبت بقلم القَدَر سوف تمسخ وتفسد! وهذا لا يمكن أن يكون مطلقا، وليس له احتمال أبدا، بل هو محال في محال، كإنكار هذا الكون، بل هو هذيان ليس إلّا.

نحصل مما تقدم: أن جميع دلائل أركان الإيمان الخمسة هي بدورها دلائل على الحشر ووجوده، وعلى النشور وحدوثه، وعلى وجود الدار الآخرة وانفتاح أبوابها. بل تستدعيه وتشهد عليه، لذا فإنه من الوفاق الكامل والانسجام التام أن يبحث ثلث القرآن الكريم المعجز البيان بكامله عن الحشر لما له من الأسس والبراهين التي لا تتزعزع، ويجعلَه أساسا وركيزة لجميع حقائقه التي يرفعها على ذلك الحجر الأساس.

(انتهت المقدمة)

* * *

نكتة توحيدية في لفظ «هو»

باسْمِهِ سُبْحَانَهُ

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أبدا دائما

إخوتي الأعزاء الأوفياء! لقد شاهدتُ -مشاهدةً آنية- خلال سياحة فكرية خيالية، لدى مطالعة صحيفة الهواء من حيث جهته المادية فقط، نكتةً توحيدية ظريفة تولدت من لفظ «هو» الموجود في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وفي ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ورأيت فيها أن سبيلَ الإيمان سهل ويسير إلى حد الوجوب بينما سبيلُ الشرك والضلالة فيه من المحالات والمعضلات إلى حد الامتناع.

سأبين بإشارة في منتهى الاختصار تلك النكتة الظريفة الواسعة الطويلة: نعم، إن حفنة من تراب، يمكن أن تكون موضعَ استنبات مئات من النباتات المزهرة إن وضعتْ فيها متعاقبةً. فإن أحيل هذا الأمر إلى الطبيعة والأسباب يلزم؛ إما أن تكون في تلك الحفنة من التراب مئات من المصانع المصغرة المعنوية، بل بعدد الأزهار... أو أن كلَّ ذرة من ذرات تلك الحفنة من التراب تعلم بناء تلك الأزهار

المتنوعة وتركيبها بخصائصها المتنوعة وأجهزتها الحيوية، أي لها علم محيط وقدرة مطلقة بما يشبه علم الإله وقدرته!!.

وكذلك الهواء الذي هو عرش من عروش الأمر والإرادة الإلهية، فلكلٍّ جزء منه، من نسيم وريح، بل حتى للهواء الموجود في جزء من نَفَس الإنسان الضَئيل عندما ينطق كلمة «**هو**» وظائف لا تعد ولا تحصى.

فلو أسندت هذه الوظائف إلى الطبيعة والمصادفة والأسباب؛ فإما أنه (أي الهواء) يحمل بمقياس مصغر مراكزَ بث واستقبال لجميع ما في العالم من أصوات ومكالمات في التلغراف والتلفون والراديو مع ما لا يحد من أنواع الأصوات للكلام والمحادثات، وأن يكون له القدرة على القيام بتلك الوظائف جميعِها في وقت واحد.. أو أن ذلك الجزءَ من الهواء الموجود في كلمة «**هو**»، وكلَّ جزء من أجزائه وكل ذرة من ذراته، لها شخصيات معنوية، وقابليات بعدد كل مَن يتكلم بالتلفونات وجميع مَن يبث من البرقيات المتنوعة وجميع مَن يذيع كلاما من الراديوات، وأن تعلم لغاتهم ولهجاتهم جميعا، وتعلّمه في الوقت نفسه إلى الذرات الأخرى، وتنشره وتبثه. حيث إن قسما من ذلك الوضع مشهود أمامنا، وأن أجزاء الهواء كلها تحمل تلك

القابلية.. إذن فليس هناك محال واحد في طريق الكفر من الماديين الطبيعيين بل محالات واضحة جلية ومعضلات وإشكالات بعدد ذرات الهواء.

ولكن إن أسند الأمر إلى الصانع الجليل، فإن الهواء يصبح بجميع ذراته جنديا مستعدا لتلقي الأوامر. فعندئذٍ تقوم ذراتُه بأداء وظائفها الكلية المتنوعة والتي لا تحد بإذن خالقها وبقوته وبانتسابها واستنادها إليه سبحانه، وبتجلي قدرة صانعها تجليا آنيا -بسرعة البرق- وبسهولة قيام ذرة واحدة بوظيفة من وظائفها وبيُسر تلفظ كلمة «**هو**» وتموج الهواء فيها. أي يكون الهواءُ صحيفةً واسعة للكتابات المنسقة البديعة التي لا تحصر لقلم القدرة الإلهية، وتكون ذراتُه بدايات ذلك القلم، وتصبح وظائف الذرات كذلك نقاط قلم القَدَر، لذا يكون الأمر سهلا كسهولة حركة ذرة واحدة.

رأيت هذه الحقيقة بوضوح تام وبتفصيل كامل وبعين اليقين عندما كنت أشاهد عالم الهواء وأطالع صحيفته في سياحتي الفكرية وتأملي في ﴿ **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ و ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ وعلمت بعلم اليقين أن في الهواء الموجود في لفظ «**هو**» برهانا ساطعا للوحدانية مثلما أن في معناه وفي إشارته تجليا للأحدية في غاية النورانية وحجة

توحيدية في غاية القوة، حيث فيها قرينةُ الإشارة المطلقة المبهمة لضمير «**هو**» أي إلى مَن يعود؟ فعرفت عندئذٍ لماذا يكرر القرآنُ الكريم وأهلُ الذكر هذه الكلمة عند مقام التوحيد.

نعم، لو أراد شخص أن يضع نقطة معينة -مثلا- على ورقة بيضاء في مكان معين، فإن الأمر سهل، ولكن لو طُلب منه وضع نقاط عدة في مواضع عدة في آن واحد فالأمر يستشكل عليه ويختلط. كذلك يرزح كائن صغير تحت ثقل قيامه بعدة وظائف في وقت واحد. لذا فالمفروض أن يختلط النظام ويتبعثر عند خروج كلمات كثيرة في وقت واحد من الفم ودخولها الأذن معا..

ولكني شاهدتُ بعين اليقين، وبدلالة لفظ «**هو**» هذا الذي أصبح مفتاحا وبمثابة بوصلة، أن نقاطا مختلفة تعد بالألوف وحروفا وكلماتٍ توضع -أو يمكن أن توضع- على كل جزء من أجزاء الهواء الذي أسيح فيه فكرا بل يمكن أن توضع كلها على عاتق ذرة واحدة من دون أن يحدث اختلاط أو تشابك أو ينفسخ النظام، علما أن تلك الذرة تقوم بوظائف أخرى كثيرة جدا في الوقت نفسه، فلا يلتبس عليها شيء، وتحمل أثقالا هائلة جدا من دون أن تبدي ضعفا أو تكاسلا، فلا نراها قاصرةً عن أداء وظائفها

المتنوعة واحتفاظها بالنظام؛ إذ ترد إلى تلك الذرات ألوفُ الألوف من الكلمات المختلفة في أنماط مختلفة وأصوات مختلفة، وتخرج منها أيضا في غاية النظام مثلما دخلت، دون اختلاط أو امتزاج ودون أن يفسد إحداها الأخرى. فكأن تلك الذرات تملك آذانا صاغية صغيرة على قدّها، وألسنةً دقيقة تناسبها فتدخل تلك الكلمات تلك الآذان وتخرج من ألسنتها الصغيرة تلك.. فمع كل هذه الأمور العجيبة فإن كل ذرة -وكل جزء من الهواء- تتجول بحرية تامة ذاكرةً خالقَها بلسان الحال وفي نشوة الجذب والوجد قائلة: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ بلسان الحقيقة المذكورة آنفا وشهادتها.

وحينما تحدث العواصفُ القوية وتدوّي أهازيجُ الرعد، ويتلمع الفضاءُ بسنا البرق، يتحول الهواء إلى أمواج ضخمة متلاطمة، بيد أن الذرات لا تفقد نظامها ولا تتعثر في أداء وظائفها فلا يمنعها شغل عن شغل... هكذا شاهدت هذه الحقيقة بعين اليقين. إذن، فإما أن تكون كلُّ ذرة -وكل جزء من الهواء- صاحبةَ علم مطلق وحكمة مطلقة وإرادة مطلقة وقوة مطلقة وقدرة مطلقة وهيمنة كاملة على جميع الذرات.. كي تتمكن من القيام بأداء هذه الوظائف المتنوعة

على وجهها.. وما هذا إلّا محالات ومحالات بعدد الذرات وباطل بطلانا مطلقا. بل حتى لا يذكره أي شيطان كان..

لذا فإن البداهة تقتضي -بل هو بحق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين- أن صحيفة الهواء هذه إنما هي صحيفة متبدلة يكتب الخالقُ فيها بعلمه المطلق ما يشاء بقلم قُدرته وقَدَره الذي يحركه بحكمته المطلقة، وهي بمثابة لوحة محوٍ وإثبات في عالم التغيّر والتّبدل للشؤون المسطّرة في اللوح المحفوظ.

فكما أن الهواء يدل على تجلي الوحدانية بهذه الأمور العجيبة المذكورة آنفا، وذلك لدى أداء وظيفة واحدة من وظائفها وهي نقل الأصوات، ويبين في الوقت نفسه بيانا واضحا محالات الضلالة التي لا تحصر، كذلك فهو يقوم بوظائف في غاية الأهمية وفي غاية النظام ومن دون اختلاط أو تشابك أو التباس كنقل المواد اللطيفة مثل الكهرباء والجاذبية والدافعة والضوء.. وفي الوقت نفسه يدخل إلى مداخل النباتات والحيوانات بالتنفس مؤديا هناك مهماته الحياتية بإتقان، وفي الوقت عينه يقوم بنقل حبوب اللقاح -أي وظيفة تلقيح النباتات- وهكذا أمثال هذه الوظائف الأساسية لإدامة الحياة؛ مما يثبت يقينا أن الهواء عرش

عظيم يأتمر بالأمر الإلهي وإرادته الجليلة. ويثبت أيضا بعين اليقين أن لا احتمالَ قطعا لتدخل المصادفة العشواء والأسباب السائبة التائهة والمواد العاجزة الجامدة الجاهلة في الكتابة البديعة لهذه الصحيفة الهوائية وفي أداء وظائفها الدقيقة. فاقتنعْتُ بهذا قناعة تامة بعين اليقين وعرفتُ أن كل ذرة وكل جزء من الهواء تقول بلسان حالها: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

ومثلما شاهدت هذه الأمور العجيبة في الجهة المادية من الهواء بهذا المفتاح، (أعني مفتاح «هو») فعنصر الهواء برمته أصبح أيضا كلفظ «هو» مفتاحا لعالم المثال وعالم المعنى؛ إذ قد علمتُ أن عالم المثال كآلة تصوير عظيمة جدا تلتقط صورا لا تعد ولا تحصى للحوادث الجارية في الدنيا، تلتقطها في آن واحد بلا اختلاط ولا التباس حتى غدا هذا العالم يضم مشاهد عظيمة وواسعة أخروية تسع ألوف ألوف الدُنى تعرض أوضاع حالات فانية لموجودات فانية وتظهر ثمار حياتها العابرة في مشاهد ولوحات خالدة تعرض أمام أصحاب الجنة والسعادة الأبدية في معارض سرمدية مذكّرةً إياهم بحوادث الدنيا وذكرياتهم الجميلة الماضية فيها.

فالحجة القاطعة على وجود اللوح المحفوظ وعالم المثال ونموذجها المصغر هو ما في رأس الإنسان من قوة حافظة وما يملك من قوة خيال، فمع أنها لا تشغلان حجم حبة من خردل إلّا أنهما تقومان بوظائفهما على أتم وجه بلا اختلاط ولا التباس وفي انتظام كامل وإتقان تام، حتى كأنهما يحتفظان بمكتبة ضخمة جدا من المعلومات والوثائق. مما يثبت لنا أن تينك القوتين نموذجان للوح المحفوظ وعالم المثال.

وهكذا لقد عُلم بعلم اليقين القاطع أن الهواء والماء ولا سيما سائل النطف، واللذان يفوقان الترابَ في الدلالة على الله -الذي أوردناه في مستهل البحث- صحيفتان واسعتان يكتب فيهما قلمُ القدَر والحكمة كتابة حكيمة بليغة، ويجريان فيهما الإرادة وقلم القدر والقدرة. وان مداخلة المصادفة العشواء والقوة العمياء والطبيعة الصماء والأسباب التائهة الجامدة في تلك الكتابة الحكيمة محال في مائة محال وغير ممكن قطعا.

ألف ألف تحية وسلام إلى الجميع.

سعيد النورسي

المقام الثاني من الكلمة السابعة عشرة [1]

إنما الشكوى بلاء

دَع الصُراخ يا مسكين، وتوكل على الله في بلواك.

إنما الشكوى بلاء.

بل بلاء في بلاء، وآثام في آثام وعناء.

إذا وجدتَ مَن ابتلاك،

عاد البلاءُ عطاءً في عطاء، وصفاءً في صفاء.

دع الشكوى، واغنم الشكر.

فالأزهار تبتسم من بهجة عاشقها البلبل.

* * *

فبغير الله دنياك آلام وعذاب، وفناء وزوال،

وهباء في هباء.

فتعالَ، تَوكّلْ عليه في بلواك!

(١) هذه القطع الواردة في المقام الثاني جاءت بما يشبه الشعر إلّا أنها ليست شعرا، ولم يُقصد نظمها، بل إن كمال انتظام الحقائق جعلها تتخذ شكلا شبيها بالنظم. (المؤلف)

أما في الترجمة، فقد اقتصرنا على المعنى وحده. (المترجم)

ما لكَ تصرخ من بلية صغيرة،

وأنت مثقل ببلايا تسع الدنيا.

* * *

تَبسَّمْ بالتوكل في وجه البلاء، ليبتسمَ البلاء.

فكلّما تبسّم صغُر وتضاءَل حتى يزول.

أيُّها المغرور اعلم

أنّ السعادة في هذه الدنيا، في تركها.

إن كنتَ بالله مؤمنا.. فهو حسبُك،

فلو أدبرتَ عن الدنيا أقبلتْ عليك.

* * *

وإن كنتَ مُعجِبا بنفسك،

فذلك الهلاك المبين.

ومهما عملت فالأشياءُ تعاديك.

فلابدَّ من الترك إذن في كلتا الحالتين.

* * *

وتركها يعني: أنها مُلك الله،
يُنظر إليها بإذنه وباسمه،
وإن كنتَ تبغي تجارة رابحة، فهي
في استبدال عمر باقٍ لا يزول بعمرك الفاني الزائل.

* * *

وإن كنتَ تريد رغبات نفسك، فهي زائلة،
تافهة، واهية.
وإن كنتَ تتطلع إلى الآفاق،
فختم الفناء عليها.

* * *

فالمتاع في هذه السوق مزيف.
لا يستحق الشراء إذن.
لذا دَعْهُ، فالأصيل منه قد أعدَّ خلفه. .

* * *

غرباء الحيرة

على قمة شجرة التوت الأسود المباركة، ذكر

سعيد القديم بلسان سعيد الجديد هذه الحقائق.

مخاطبي ليس «ضياء باشا» بل المفتونون بأوروبا.

والمتكلم ليس نفسي، بل قلبي تلميذ القرآن.

* * *

إن «الكلمات» السابقة حقائق. إيّاك أن تحارَ،

احذَرْ أن تُجاوز حدَّها

لا تُزِغْ، ولا تُصغِ إلى فكر الأجانب، إنه ضلال،

يسوقك إلى الندم.

* * *

ألا ترَى الأوسعَ فكرا والأحدَّ نظرا

يقول دوما في حيرته:

آه! وا أسفى! ممن أشكو، ولمن! فقد ذَهُلْتُ!

* * *

وأنا أقولُ ولا أتردد فالقرآن ينطقني:

أشكو منه إليه، ولا أتحيّر مثلَك!

* * *

أستغيث من الحق بالحق، لا أتجاوز حدّي.
أدعو من الأرض إلى السماء، ولا أهرب مثلَك!

* * *

في القرآن الكريم: الدعوة كلها؛
من النور وإلى النور، لا أنكُثُ مثلَك.
في القرآن الكريم: الحكمة الصائبة. أثبتها،
ولا أعير للفلسفة المخالفة أيَّ اهتمام!
في القرآن الكريم: جواهر الحقائق.
أفديها بروحي.. لا أبيعها مثلَك!

* * *

أجيل طَرْفي من الخلق إلى الحق، لا أضل مثلَك!
أطير فوق الطريق الشائك، لا أطؤها مثلك!
يصعد شكري إلى عنان السماء، لا أعصي مثلَك!

* * *

أرى الموت صديقا، لا أخافه مثلَك!
أدخلُ القبرَ باسما، لا أرتعدُ مثلَك!

* * *

فمَ تنّين، فِراشَ الوحشة، عتبةَ العَدَمِ . .
لا أراهُ مثلَك!
بل موضع تلاقي الأحباب . .
لا أضجر منه، لا أبغِضُهُ مِثْلَك!

* * *

لا أتضايقُ منه، ولا أهابه.
فهو باب الرحمة، باب النور، باب الحق
أقرعه باسم الله، ولا ألْتَفِتُ،
ولا تَأْخُذِني الدَّهشةُ.
سأرقُد قريرَ العين، حامِدا رَبِّي، لا أقاسي ضِيقا،
ولا أظلُّ في وحشة.
سأقوم على صدى أذانِ إسرافيلَ في فَجْرِ الحشر،
قائلا . . «الله أكبر» .
لا أرهَبُ من المحشر الأكبر!
لا أتخَلَّفُ عن المسجد الأعظم!

* * *

من لطف الله ونور القرآن الكريم
وفيض الإيمان. . لا أيأسُ أصلا.
بل أسعى وأجري طائرا إلى ظل عرش الرحمن.
ولا أحارُ مثلك. . إن شاء الله.

* * *

من هو أسعد إنسان؟

لما كانت الدنيا فانيةً.. والعمرُ قصيراً.. والواجبات كثيرةً.. وأن الحياة الأبدية تُكسب هنا، في الدنيا.. وهي ليست بلا مولى.. فللمضيف ربٌّ كريم حكيم.. لا يضيّع جزاء السيئة ولا الحسنة.. و ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .. وحيث إن السبيل السوي وما فيه أذى لا يستويان.. ولا يجاوز بابَ القبر أخلّاءُ الدنيا وجاهُها..

فلابد أن أسعدَ إنسان هو مَن: لا ينسى الآخرة لأجل الدنيا.. ولا يُضحّي بآخرته للدنيا.. ولا يفسد حياته الأبدية لأجل حياة دنيوية.. ولا يهدر عمره بما لا يعنيه.. ينقاد للأوامر انقيادَ الضيف للمضيّف. ليفتحَ باب القبر بأمان.. ويدخلَ دار السعادة بسلام.

* * *

خير شبابكم

سؤال: «**خَيْرُ شَبَابِكُمْ مَنْ تَشَبَّـهَ بِكُهُولِكُمْ وَشَرُّ كُهُولِكُمْ مَنْ تَشَبَّـهَ بِشَبَابِكُمْ**».[1] هل هذا حديث نبوي؟ وإذا كان حديثاً شريفاً فما المقصود منه؟.

الجواب: لقد سمعتُه حديثاً نبوياً شريفاً. أما المقصود منه فهو:

«إن خير الشباب هم أولاء الذين لم يتمادَوا كثيراً في الغفلة عن الله، بل يتذكّرون الموت كتذكّر الشيوخ له، فيجدّون لإعمار آخرتهم متحررين من قيود أهواء الشباب ونـزواته. وشرّ شيوخكم هم أولاء الذين غفلوا عن الله فاستهوتهم غفلاتُ الشباب، فقلّدوهم في أهوائهم تقليدَ الصبيان».

إن الصورة الصحيحة لما رأيتُه في القسم الثاني من لوحتك هي:

إنني قد علقتُ فوق رأسي لوحةً تتضمن حكمةً بليغة، أنظرُ إليها صباحَ مساء، وأتلقى درسي منها وهي:

---

(١) الطبراني، المعجم الكبير ٢٢/ ٨٣، المعجم الأوسط ٦/ ٩٤؛ أبو يعلى، المسند ١٣/ ٤٦٧.

«إنْ كنتَ تريد وليًا، فكفى بالله وليًا».

نعم إن كان هو وليُّك فكل شيء لك صديق.

«إنْ كنتَ تريد أنيسًا،
فكفى بالقرآن الكريم أنيسًا».

إذ تعيش فيه مع الأنبياء والملائكة وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

«إن كنتَ تريد مالاً، فكفى بالقناعة كنزًا».

نعم، إن القانع يقتصد، والمقتصد يجد البركة.

«إن كنتَ تريد عدوًا، فكفى بالنفس عدوًا».

إذ المُعجَب بنفسه لا محالة يرى المصاعب ويبتلى بالمصائب، بينما الذي لا يعجب بها يجد السرور والراحة والرحمة.

«إن كنتَ تريد واعظًا، فكفى بالموت واعظًا».

حقاً من يذكر الموت ينجو من حب الدنيا ويسعى لآخرته سعياً حثيثاً.

* * *

الدواء الخامس

إلى الشاب المريض

أيها المبتلى بالمرض! لقد توافرت لديّ القناعة التامة خلال تجربتي في هذا الزمان، بأنَّ المرض نوعٌ من الإحسان الإلهي والهدية الرحمانية لقسم من الناس.[1] فقد التقاني بعضُ الشباب في هذه السنوات الثماني أو التسع، لمعاناتهم المرض، ابتغاء دعائي لهم، رغم أني لست أهلاً لذلك. فلاحظت أن مَن كان منهم يعاني مرضاً هو أكثر تفكراً في الآخرة وتذكراً لها، وليس ثملاً بغفلة الشباب، بل كان يقي نفسَه -إلى حدّ ما- تحت أوجاع المرض وأوصابه ويحافظ عليها من الشهوات الحيوانية. وكنت أذكّرهم بأني أرى أن أمراضَهم هذه، ضمن قابليتهم على التحمّل إنما هي إحسانٌ إلهي وهبة منه سبحانه. وكنت أقول: «يا أخي! أنا لست ضد مرضك هذا ولا عليه، فلا أشعر بشفقة عليك ورأفة لأجل مرضك، كي أقوم بالدعاء لك، فحاول التجمل بالصبر والثبات أمام هذا المرض، حتى تتحقق لك الإفاقة

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَن يرد الله به خيراً يُصب منه». البخاري، المرضى ١.

والصحوة؛ إذ بعد أن ينهي المرض مهامَّه سيشفيك الخالقُ الرحيم إن شاء». وكنت أقول أيضاً: «إنَّ قسماً من أمثالك يزعزعون حياتهم الأبدية بل يهدمونَها مقابل متاع ظاهري لساعة من حياة دنيوية، وذلك لمضيّهم سادرين في الغفلة الناشئة من بلاء الصحة، هاجرين الصلاة ناسين الموت وغافلين عن الله عز وجل. أما أنت فترى بعين المرض القبرَ الذي هو منزلُك الذي لا مناص من الذهاب إليه، وترى كذلك ما وراءه من المنازل الأخروية الأخرى، ومن ثم تتحرك وتتصرف على وفق ذلك. فمرضُك إذن إنما هو بمثابة صحةٍ لك، والصحةُ التي يتمتع بها قسم من أمثالك إنما هي بمثابة مرضٍ لهم».

* * *

«من اللمعات»

مسألة لطيفة تخص النفس

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: ٥٣) والحديث الشريف: **(أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك)**.[1]

نعم، إنَّ الذي يحب نفسَه الأمارة بالسوء -غير المزكّاة- ويعجب بها، هو في الحقيقة لا يحب أحداً غيرها، وحتى لو أبدى للغير حباً فلا يحبه من صميم قلبه، بل ربما يحبه لمنافعه، ولما يتوقع منه من متاع. فهو في محاولة دائمة لتحبيب نفسه للآخرين وفي سعي متواصل لإثارة إعجابهم به، يصرف كل قصورٍ عن نفسه فلا يحمّلها أي نقص كان، بل يدافع دفاعَ المحامي المخلص لإبراء ساحتها، ويمدحها بمبالغات بل بأكاذيب لينـزّهها عن كل عيب أو قصور، حتى يقربها إلى التقديس، بل يبلغ به الأمر أن يكون مصداق الآية الكريمة: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الفرقان: ٤٣) عندها تتوالى عليه صفعاتُ هذه الآية الكريمة -حسب درجته- فينقلب مدحُه إلى إعراض الناس عنه، ويتحول

(١) «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك»، البيهقي، الزهد ٢/ ١٥٦.. والمشهور على الألسنة: اعدى عدوك..إهـ(كشف الخفاء ١/ ١٤٣).

تحبيب نفسه إليهم إلى استثقالهم له، فيجد عكس ما كان يروم، فضلاً عن أنه يضيّع الإخلاص، لما يخلط من رياء وتصنّع في أعماله الأخروية، فيكون مغلوباً على أمره أمام شهواته وهواه ومشاعره، تلك التي لا تبصر العقبى ولا تفكر في النتائج والمغرمة بالتلذذ الآني. بل قد تبرر له أهواؤه الضالة أموراً يرتكبها لأجل متعة لا تدوم ساعة يفضي به أن يلقى في السجن لسنة كاملة. وقد يقاسي عشر سنوات من الجزاء العادل لأجل تسكين روح الثأر لديه وشهوة الغرور التي لا تستغرق دقيقة واحدة. فيكون مثله كمثل ذلك الطفل الأبله الذي لا يقدر قيمة جزء المصحف الشريف الذي يتلوه ويدرسه فيبيعه بقطعة حلوى رخيصة، إذ يصرف حسناته التي هي أغلى من الألماس ويبدلّها بما يشبه في تفاهتها قطع الزجاج، تلك هي حسياته وهواه وغروره. فيخسر خسارة جسيمة فيما كان ينبغي له أن يربح ربحاً عظيماً.

اللّهم احفظنا من شر النفس والشيطان
ومن شر الجن والإنس.

* * *

من المثنوي العربي النوري

المنتبهون النائمون

اعلم أنه إنني مصداق لما قيل:

وعيني قد نامت بليلِ شبيبتي

ولم تنتبه إلّا بصُبح مَشيب[1]

إذ أشدُّ أوقات انتباهي في شبيبتي، رأيته الآن أعمقَ طبقات نومي! فالمتنورون المتنبهون في عُرف المدنيين كانتباهي فيما مضى، مَثَلُهم كمثل مَن رأى في رؤياه أنه انتبه وقصَّ رؤياه على بعض الناس، والحال أنه بهذا الانتباه مرّ من طبقة النوم الخفيفة إلى الطبقة الكثيفة. فمَن كان هكذا نائما كالميت كيف يوقظ الحي الناعس، وكيف يُسمع الناعسَ ما يتكلم به من وراء حُجب نومه المضاعف!

أيها المتنبّهون النائمون! لا تتقرَّبوا إلى المدنيين بالمسامحة الدينية والتشبّه، ظنا منكم أنكم تَصيرون جسرا بيننا وبينهم، وتملأون الواديَ بيننا. كلّا، إن المسافة بين المؤمنين والكافرين غيرُ محدودة، والوادي بيننا في غاية العمق لا تملأونه، بل تلتحقون بهم أو تضلّون ضلالا بعيدا!

---

(١) أبو العباس المقري، نفح الطيب ٤/ ٣٤٢، ٧/ ٢٨٠.

من المثنوي العربي النوري

انتبه قبل انتغرق!

اعلم يا أيها الإنسان! إنّ من غرائب ما أودع الفاطرُ الحكيم في ماهيتك أنه قد لا تَسعك الدنيا فتقول «أوف»[1] كالمسجون المخنوق، مع أنه تَسعُك خردلةٌ وحُجيرةٌ وخاطرةٌ ودقيقةٌ حتى تفنَى فيها، وتستعمل أشد حسياتك لها.. وأعطاك لطائف بعضُها يبتلع الدنيا فلا يشبع، وبعضها يضيق عن ذرة ولا يتحمل شُعيرة، كما أن العين لا تتحمل شعرة.

فاحذر وخفّف الوطء، وخَف أن تغرقَ ويغرق معك ألطفُ لطائفك في أكلةٍ، أو كلمةٍ، أو شعرة، أو شُعيرة، أو لمعةٍ، أو لحمةٍ، أو بقلةٍ، أو قُبلةٍ.. فإن في كل شيء جهة من عدم التناهي يطيق أن يُغرقَك، ولا يضيق عن بلعِك. فانظر إلى مرآتك كيف يغرقُ فيها السماء بنجومها! وإلى خردلةِ حافظتك كيف كتب «الحق» فيها أكثر ما في صحيفة أعمالك وأغلبَ ما في صحائف أعمارك! فسبحانه من قادرٍ قيوم!

* * *

(١) كلمة تضجر.

من ملحق قسطموني

مرض النسيان

قال لي يوما أحد طلبة النور من الشباب الحافظ للقرآن الكريم مثل ما يقوله الكثيرون: يزداد عندي مرض النسيان يوما بعد يوم؛ فماذا أفعل؟

قلت: لا تنظر نظر الحرام ما استطعت. لأن «النظر الحرام يورث النسيان» كما يروى عن الإمام الشافعي رضي الله عنه.[1]

نعم، إن النظر الحرام كلما ازداد بين المسلمين ثارت شهواتُهم النفسانية، فيتولد منها الإسراف والإفراط، حتى قد يضطر المرء إلى الاغتسال عدّة مرات في الأسبوع الواحد، مما ينجم عنه ضعفٌ في قوة الحفظ كما هو معلوم لدى الطب. ومما جعل انتشار مرض النسيان هذا عاما شاملا للجميع هو شيوع التبرج والتكشف في هذا العصر ولاسيما في بلدان المناطق الحارة، مما سبّب كثرةَ النظر الحرام

(١) لعل المقصود:

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال: اعلم بأن العلمَ نورٌ ... ونورُالله لا يؤتى لعاصي!

الذي يولد الإسراف والإفراط. حتى تجد الجميع يشكون من النسيان، كل على قدر إصابته به.

ولعل طرفا من تأويل الحديث الشريف الذي أنذر عن نزع القرآن الكريم من الصدور في آخر الزمان، يتحقق بازدياد هذا المرض. بمعنى أن هذا المرض سيشتد وطؤه، ويحُول دون حفظ القرآن الكريم، فيتحقق عندئذ تأويل الحديث. **ولا يعلم الغيب إلّا الله**.

* * *

من ملحق قسطموني

«هذه الرسالة في غاية الأهمية»

التقوى والعمل الصالح

باسمه سبحانه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أبداً دائماً

إخوتي الأعزاء الأوفياء!

لقد فكرت -في هذه الأيام- في أسس التقوى والعمل الصالح، اللذَين هما أعظم أساسين في نظر القرآن الكريم بعد الإيمان.

فالتقوى هي ترك المحظور والاجتناب عن الذنوب والسيئات. والعمل الصالح هو فعل المأمور لكسب الخيرات.

ففي هذا الوقت الذي يتسم بالدمار -الأخلاقي والروحي- وبإثارة هوى النفس الأمارة، وبإطلاق الشهوات من عقالها.. تصبح التقوى أساساً عظيماً جداً بل ركيزة الأسس، وتكسب أفضلية عظيمة حيث إنها دفع للمفاسد وترك للكبائر، إذ إن «درء المفاسد أولى من جلب المنافع» قاعدة مطردة في كل وقت.

وحيث إن التيارات المدمرة أخذت تتفاقم في هذا

الوقت، فقد أصبحت التقوى أعظمَ أساس وأكبر سد لصد هذا الدمار الرهيب. فالذي يؤدي الفرائض ولا يرتكب الكبائر، ينجو بإذن الله، إذ التوفيق إلى عمل خالص مع هذه الكبائر المحيطة أمر نادر جداً، وإن عملاً صالحاً ولو كان قليلاً يغدو في حكم الكثير ضمن هذه الشرائط الثقيلة والظروف العصيبة.

ثم إن هناك نوعاً من عمل صالح ضمن التقوى نفسها، لأن ترك الحرام واجب والقيام بالواجب ثوابه أكثر من كثير من السنن والنوافل، ففي مثل هذه الأزمان التي تهاجِم الذنوب والسيئات الإنسانَ من كل جانب يكون اجتنابُ أثمٍ واحد مع عمل قليل، بمثابة تركٍ لمئات من الآثام -التي تترتب على ذلك الإثم- وقيامٍ بمئات من الواجبات.

هذه النقطة جديرة بالاهتمام، ولا تحصل إلّا بالنية الخالصة وبالتقوى وقصد الفرار من الآثام والذنوب، ويغنم المرء بها ثواب أعمال صالحة نشأت من عبادة لم يَصرِف فيها جهداً.

إن أهم وظيفة تقع على عاتق طلاب النور خدامِ القرآن الكريم، في هذا الوقت هي اتخاذُ التقوى أساساً في الأعمال كلها، ثم التحركُ وفقها أمام تيار الدمار الرهيب المهاجم

والآثام المحيطة بهم، إذ يواجه الإنسانُ ضمن أنماط الحياة الاجتماعية الحاضرة مئاتٍ من الخطايا في كل دقيقة، فالتقوى هي التي تجعل -دون ريب- الإنسانَ كأنه يقوم بمئات من الأعمال الصالحة، وذلك باجتنابه تلك المحرمات.

من المعلوم أن عشرين شخصاً في عشرين يوماً لا يستطيعون بناء عمارة واحدة؛ في حين يستطيع أن يهدمها شخص واحد في يوم واحد. لذا فالذي يقوم بالهدم والدمار ينبغي أن يقابَل بعشرين ممن يبنون ويعمِّرون تلك النواحي، بيد أننا نرى العكس. فالألوف من الهدامين لا يقابلهم إلا معمِّر واحد وهو رسائل النور. فمقاومة خدام القرآن الكريم وحدهم تلك التخريباتِ المريعةَ إنما هي عمل خارق جداً. فلو كانت هاتان القوتان المتقابلتان على مستوى واحد من القوة، لكنت ترى في التعمير والبناء -الروحي والأخلاقي- خوارقَ وفتوحات عظيمة جداً.

ولنضرب مثلًا واحداً فقط: إن أعظم ركيزة في الحياة الاجتماعية هي توقير الصغير للكبير ورحمة الكبير للصغير، إلا أننا نرى أن هذا الأساس قد تصدع كثيراً، حتى إننا نسمع أخباراً مؤلمة جداً، وحوادث مفجعة جداً تجاه الآباء والأمهات، تقع من جراء خراب هذا الأساس الراسخ.

ولكن بفضل الله فإن الرسائل القرآنية أينما حلت

قاومت الدمار، وحالت دون تهدم هذا الأساس الاجتماعي المتين، بل حاولت تعميره.

فكما يعيث يأجوج ومأجوج في الأرض الفساد بخراب سد ذي القرنين، فإن فساداً أبشع من فساد يأجوج ومأجوج قد دبّ في العالم وأحاطه بظلمات الإرهاب والفوضى وعمت الحياة والأخلاق مظالم شنيعة وإلحاد شنيع.. فظهر الفساد في البر والبحر، نتيجة تزلزل السد القرآني العظيم، وهو الشريعة المحمدية الغراء.

لذا فإن الجهاد المعنوي لطلاب النور ضد هذا التيار الجارف يُعدّ -بإذن الله- جهاداً عظيم الثواب، إذ فيه قبس من جهاد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم الذين يثابون بعملٍ قليل ثواباً عظيماً.

فيا إخوتي الأعزاء! في مثل هذه الأوقات العصيبة، وأمام هذه الأحداث الجسام، فإن أعظم قوة لدينا -بعد قوة الإخلاص- هي قوة «الاشتراك في الأعمال الأخروية» إذ يَكتب كلٌّ منكم في دفتر أعمال إخوته حسناتٍ كثيرة مثلما يُرسل بلسانه الإمدادَ والعون إلى قلعة التقوى وخنادقها. وإن أخاكم الفقير والعاجز هذا «السعيد» الذي اشتدت عليه غارات الهجوم من كل جهة، هو أحوج ما يكون

إلى مساعدتكم في هذه الأشهر الثلاثة المباركة، وفي هذه الأيام المشهودة. ولا أستبعد هذا منكم قط، فأنتم أهل لهذا السعي، وأنتم الأبطال الأوفياء المشفقون على حال أخيكم، وأنا أطلب منكم هذا الإمداد المعنوي بكل جوارحي ومن صميم روحي.

وبدوري سأشرك الطلاب في دعواتي وحسناتي المعنوية، بل ربما أدعو لكم في اليوم أكثر من مائة مرة باسم طلاب النور، بشرط الالتزام بالإيمان والوفاء، وذلك دستور الاشتراك في الأعمال الأخروية.

سعيد النورسي

* * *

صفحة من الحياة

إنه من المعلوم لدى المطلعين على تاريخ حياتي أنني مكثت سنتين في مضيف الوالي المرحوم «عمر باشا» في بتليس بناء على إصراره الشديد ولفرط احترامه للعلم والعلماء.. كان له من البنات ست؛ ثلاث منهن صغيرات وثلاث بالغات كبيرات.. ومع أني كنت أعيش معهم في سكن واحد طوال سنتين إلّا أنني لم أكن أميّز بين الثلاث الكبيرات؛ إذ لم أكن أسدد النظر إليهن كي أعرفهن وأميّز بينهن. حتى نزل أحد العلماء يوماً ضيفاً عليّ، فعرفهن

في ظرف يومين فقط وميّز بينهن، فأخذت الحيرة الذين من حولي، لعدم معرفتي إياهن. وبدؤوا بالاستفسار: «لماذا لا تنظر إليهن؟». فكنت أجيبهم: «صونُ عزة العلم يمنعني من النظر الحرام».

وفي أحد المهرجانات المقامة في إسطنبول، قبل أربعين سنة، كان الازدحام على أشده... اصطفت ألوفٌ من نساء إسطنبول ومن الروم والأرمن الكاسيات العاريات على طرفَي الخليج (الذي يقسم جانب إسطنبول إلى قسمين).

ركبت مع السيد طه والسيد إلياس (وهما عضوا المجلس النيابي) في قارب لينقلنا إلى نهاية الخليج حيث الاحتفالات تقام هناك.

كان القارب يمر من أمام أولئك النساء، ولم يكن لي علم أصلا من أن الملاّ طه والحاج إلياس قد اتفقا على مراقبتي بالتناوب واختباري في النظر إلى النساء، حتى اعترفا بذلك بعد ساعة كاملة من التجوال في القارب وبين أولئك النساء قائلَين:

لقد حَيَّـرَنا أمرُك هذا، أنك لم ترفع بصرك إليهن قط.

قلت: أنا لا أريد أذواقا موقتة تافهة مشوّبة بالآثام، لأن عاقبتَها آلام وحسرات.

* * *

المبحث الثاني من الموقف الثالث
من «الكلمة الثانية والثلاثين»

سر شقاء الضال و سعادة المؤمن

إنّ ممثل أهل الضلالة والداعية لها، إذ لم يجد ما يبني عليه ضلالتَه، وعندما تفوتُه البيّنة وتلزمه الحجة يقول: إني أرى أن سعادة الدنيا، والتمتع بلذة الحياة، والرقي والحضارة، والتقدم الصناعي هي في عدم تذكّر الآخرة وفي عدم الإيمان بالله وفي حب الدنيا وفي التحرر من القيود وفي الاعتداد بالنفس والإعجاب بها.. لذا سقتُ أكثر الناس ولا زلت أسوقهم -بهمة الشيطان- إلى هذا الطريق.

الجواب: ونحن بدورنا نقول -باسم القرآن الكريم-: أيها الإنسان البائس! عُد إلى رُشدك، لا تصغ إلى داعية أهل الضلالة. ولئن ألقيتَ السمع إليه ليكونن خسرانُك من الفداحة ما يقشعر من هول تصوّره الروحُ والعقلُ والقلبُ. فأمامك طريقان:

الأول: هو طريق ذو شقاء يريك إياه داعيةُ الضلالة.

الثاني: هو الطريق ذو السعادة الذي يبيّنه لك القرآن الحكيم.

ولقد رأيتَ كثيرا من الموازنات بين ذينك الطريقين في كثير من «الكلمات» ولاسيما في «الكلمات الصغيرة» والآن انسجاما مع البحث تأمّل في واحدةٍ من ألفٍ من المقارنات والموازنات وتدبَّرها، وهي:

إن طريق الشرك والضلالة والسفاهة والفسوق يهوي بالإنسان إلى منتهى السقوط وإلى أسفل سافلين، ويُلقي على كاهِله الضعيف العاجز في غمرة آلام غير محدودة عبئا ثقيلا لا نهاية لثقله، ذلك لأن الإنسان إن لم يعرف الله سبحانه وتعالى وإن لم يتوكل عليه، يكون بمثابة حيوانٍ فانٍ؛ يتألم دوما ويحزَن باستمرار، ويتقلب في عَجز وضعف لا نهاية لهما، ويتلوّى في حاجةٍ وفقر لا نهاية لهما، ويتعرض لمصائبَ لا حد لها، ويتجرّع آلامَ الفراق من التي استهواها ونسجَ بينه وبينها خيوط العلاقات، فيقاسي -وما زال يقاسي- حتى يغادرَ ما بقي من أحبائه نهايةَ المطاف ويفارقهم جزِعا وحيدا غريبا إلى ظلمات القبر.

وسيجد نفسَه طوال حياته أمامَ آلام وآمال لا نهاية لهما، مع أنه لا يملك سوى إرادة جزئية، وقدرة محدودة، وحياةٍ قصيرة، وعمرٍ زائل، وفكر آفل.. فتذهب جهودُه في تطمينها سدىً؛ ويسعى هباء وراء رغباته التي لا تُحد.

وهكذا تمضي حياتُه دون أن يجني ثمرا. وبينما تجده عاجزا عن حمل أعباء نفسه، تراه يحمّل عاتقَه وهامَته المسكينة أعباءَ الدنيا الضخمة، فيتعذب بعذاب محرق أليم قبل الوصول إلى عذاب الجحيم.

إن أهل الضلالة لا يشعرون بهذا الألم المرير والعذاب الروحي الرهيب، إذ يلقون أنفسَهم في أحضان الغفلة ليُبطلوا شعورَهم ويخدّروا إحساسَهم مؤقتا بسُكرها.. ولكن ما إن يدنو أحدُهم من شفير القبر حتى يرهفَ إحساسُه ويضاعَف شعورُه بهذه الآلام دفعةً واحدة؛ ذلك لأنه إن لم يكن عبدا خالصا لله تعالى فسيظن أنه مالك نفسَه، مع أنه عاجز بإرادته الجزئية وقدرته الضيئلة حتى عن إدارة كيانه وحده أمام أحوال هذه الدنيا العاصفة، إذ يرى عالما من الأعداء يحيط به ابتداءً من أدق الميكروبات وانتهاءً بالزلازل المدمرة، على أتم استعداد للانقضاض عليه والإجهاز على حياته، فترتعد فرائصُه ويرتجف قلبُه رعبا وهلَعا كلما تخيّل القبرَ ونظر إليه.

وبينما يقاسي هذا الإنسانُ ما يقاسي من وضعه إذا بأحوال الدنيا التي يتعلق بها ترهقه دوما، وإذا بأوضاع بني الإنسان الذي يرتبط بهم تنهكه باستمرار، ذلك لظنه أن هذه الأحداث والوقائع ناشئة من لعب الطبيعة وعبث

المصادفة، وليست من تصرف واحدٍ أحد حكيمٍ عليمٍ، ولا من تقديرِ قادرٍ رحيمٍ كريمٍ، فيعاني مع آلامه هو آلامَ الناس كذلك، فتُصبح الزلازل والطاعون والطوفان والقحط والغلاء والفناء والزوال وما شابهها مصائبَ قاتمةً وبلايا مزعجة معذِّبة!

فهذا الإنسان الذي اختار بنفسه هذا الوضع المفجع، لا يثير إشفاقا عليه، ولا رثاءً على حاله.. مثَله في هذا كمثل الذي ذُكر في الموازنة بين الشقيقين في «الكلمة الثامنة» من أن رجلا لم يقنع بلذةٍ بريئة ونشوةٍ نـزيهة وتسلية حلوة ونـزهة شريفة مشروعة، بين أحبّة لطفاء في روضة فيحاء وسط ضيافة كريمة، فراح يتعاطى الخمرَ النجسة ليكسب لذة غير مشروعة، فَسَكر حتى بدأ يُخيّل إليه أنه في مكان قذرٍ، وبين ضوارٍ مفترسة، تصيبه الرعشةُ كأنه في شتاء، وبدأ يستصرخ ويستنجد فلم يشفق عليه أحد؛ لأنه تصوّر أصدقاءه الطيبين حيواناتٍ شرسةً، فحقّرهم وأهانهم.. وتوهم الأطعمةَ اللذيذة والأواني النظيفة التي في صالة الضيافة أحجارا ملوثة، فباشر بتحطيمها.. وظن الكتبَ القيمة والرسائل النفيسة في المجلس نقوشا عادية وزخارفَ لا معنى لها، وشرع بتمزيقها ورميها تحت الأقدام.. وهكذا.

فكما لا يكون هذا الشخصُ وأمثالُه، أهلا للرحمة ولا يستحق الرأفة، بل يستوجب التأديب والتأنيب، كذلك الحال مع مَن يتوهم بسُكر الكفر وجنونِ الضلالة الناشئين من سوء اختياره أن الدنيا التي هي مضيف الصانع الحكيم لعبةَ المصادفة العمياء، وألعوبة الطبيعة الصماء.. ويتصور تجديدَ المصنوعات لتجليات الأسماء الحسنى وعبورَها إلى عالم الغيب مع تيار الزمن، بعد أن أنهت مهامَّها واستنفدت أغراضَها، كأنها تصبّ في بحر العدم ووادي الانعدام وتغيب في شواطئ الفناء.. ويتخيل أصواتَ التسبيح والتحميد التي تملأ الأكوان والعوالم أنينا ونواحا يطلقه الزائلون الفانون في فراقهم الأبدي.. ويحسب صحائفَ هذه الموجودات التي هي رسائل صمدانية رائعة خليطا لا معنى له ولا مغزى.. ويخال بابَ القبر الذي يفتح الطريق إلى عالم الرحمة الفسيح نفقا يؤدي إلى ظلمات العدم.. ويتصور الأجَلَ الذي هو دعوة الوصال واللقاء بالأحباب الحقيقيين أوانَ فراق الأحبة جميعِهم!.

نعم، إن الذي يعيش في دوّامة هذه التصورات والأوهام يُلقي نفسَه في أتون عذاب دنيوي أليم، ففضلا عن أنه لا يكون أهلا لرحمة ولا لرأفة، يستحق عذابا شديدا، لتحقيره

الموجودات، باتهامها بالعبثية، وتزييفه الأسماءَ الحسنى، بإنكار تجلياتها، وإنكاره الرسائلَ الربانية بردّه شهاداتِها على الوحدانية.

فيا أيها الضالون السفهاء، ويا أيها التعساء الأشقياء! تُرى هل يُجدي أعظمُ علومكم، وأعلى صروح حضارتكم وأرقى مراتب نبوغكم وأنفذُ خطط دهائكم شيئا أمام هذا السقوط المخيف المريع للإنسان؟ وهل يستطيع الصمودَ حيال هذا اليأس المدمّر للروح البشرية التواقة إلى السلوان؟ وهل يقدر ما تطلقون من «طبيعة» لكم، وما تسندون إليه الآثار الإلهية من «أسباب» عندكم، وما تنسبون إليه الإحسانات الربانية من «شريك» لديكم، وما تتباهَون به من «كشوفاتكم» وما تعتزون به من «قومِكم»، وما تعبدون من «معبودكم» الباطل.. هل يستطيع كلُّ أولئك إنقاذَكم من ظلمات الموت الذي هو إعدام أبدي لديكم؟ وهل يستطيع كلُّ أولئك إمرارَكم من حدود القبر بسلامة، ومن تخوم البرزخ بأمان، ومن ميدان الحشر باطمئنان، ويتمكن من أن يعينكم على عبور جسر الصراط بحكمة، ويجعلكم أهلا للسعادة الأبدية والحياة الخالدة؟.

إنكم لا محالة ماضون في هذا الطريق، إذ ليس بمقدوركم أن توصدوا باب القبر دون أحد. فأنتم مسافرو

هذا الطريق لا مناص. ولابد لمن يمضي في هذا الطريق من أن يستند ويتكل على مَن له علم محيط شامل بكل دروبه وشعابه وحدوده الشاسعة، بل تكون جميع تلك الدوائر العظيمة تحت تصرفه وضمن أمره وحكمه.

فيا أيها الضالون الغافلون! إن ما أُودع في فطرتكم من استعداد المحبة والمعرفة، ومن وسائط الشكر ووسائل العبادة التي يلزم أن تُبذل إلى ذات الله تبارك وتعالى، وينبغي أن تتوجه إلى صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، قد بذلتموها -بذلا غيرَ مشروع- لأنفسكم وللدنيا، فتعانون مستحقين عقابَها، وذلك بسر القاعدة: «إن نتيجة محبةٍ غير مشروعة مقاساةُ عذاب أليمٍ بلا رحمة». لأنكم وهبتم لأنفسكم المحبة التي تخص الله سبحانه وتعالى، فتعانون بلايا محبوبتكم التي لا تعد، إذ لم تمنحوها راحتها الحقيقة.. وكذا لا تسلّمون أمرَها بالتوكل إلى المحبوب الحق وهو الله القدير المطلق، فتقاسون الألم دائما.. وكذا فقد أوليتم الدنيا المحبةَ التي تعود إلى أسماء الله الحسنى وصفاته الجليلة المقدسة، ووزعتم آثارَ صنعته البديعة وقسمتموها بين الأسباب المادية، فتذوقون وبال عملكم؛ لأن قسما من أحبّائكم الكثيرين يغادرونكم مُدبرين دون توديع، ومنهم مَن لا يعرفونكم أصلا، وحتى إذا عرفوكم لا يحبونكم، وحتى إذا

أحبوكم لا ينفعونكم، فتظلون في عذابٍ مقيم من أَعْذِبَةِ فراقٍ لا حد له ومن آلامٍ زوال يائس من العودة.

فهذه هي حقيقة ما يدّعيه أهل الضلالة، وماهيةُ ما يدعون إليه من «سعادة الحياة» و«كمال الإنسان» و«محاسن الحضارة» و«لذة التحرر»!!

ألا ما أكثفَ حجابُ السفاهة والسُكر الذي يُخَدِّر الشعور والإحساس!

ألا قل: تباً لعقل أولئك الضالين!.

أما الصراط المستقيم أو الجادة المنوّرة للقرآن الكريم، فإنه يداوي جميعَ تلك الجروح التي يعاني منها أهلُ الضلالة ويضمدها بالحقائق الإيمانية، ويبدد كلَّ تلك الظلمات السابقة في ذلك الطريق، ويسد جميع أبواب الضلالة والهلاك، بالآتي:

إنه يداوي ضعفَ الإنسان، وعجزَه، وفقره، واحتياجَه بالتوكل على القدير الرحيم، مُسلّما أثقال الحياة وأعباء الوجود إلى قدرته سبحانه وإلى رحمته الواسعة دون أن يحمّلها على كاهل الإنسان. بل يجعله مالكا لزمام نفسه وحياته، واجدا له بذلك مقاما مريحا، ويعرّفه بأنه

ليس بحيوانٍ ناطق، بل هو إنسان بحق وضيف عزيز مكرّم عند الملك الرحمن.

ويداوي أيضا تلك الجروح الإنسانية الناشئة من فناء الدنيا وزوال الأشياء، ومن حب الفانيات، يداويها بلطف وحنان بإظهاره الدنيا دارَ ضيافة الرحمن ومبينا أن ما فيها من الموجودات هي مرايا الأسماء الحسنى، وموضحا أن مصنوعاتها رسائلَ ربانية تتجدد كل حين بإذن ربها، فينقذ الإنسان من قبضة ظلمات الأوهام.

ويداوي أيضا تلك الجروح التي يتركها الموتُ، الذي يتلقاه أهلُ الضلالة فراقا أبديا عن الأحبة جميعا، ببيانه أن الموت مقدمةُ الوصال واللقاء مع الأحباء الذين رحلوا إلى عالم البرزخ والذين هم الآن في عالم البقاء، ويثبت أن ذلك الفراقَ هو عينُ اللقاء.

ويزيل كذلك أعظمَ خوف للإنسان بإثباته أن القبر باب مفتوح إلى عالم الرحمة الواسعة، وإلى دار السعادة الأبدية، وإلى رياض الجنان، وإلى بلاد النور للرحمن الرحيم، مبينا أنّ سياحة البرزخ التي هي أشدُّ ألما وأشقى سياحة عند أهل الضلالة، هي أمتعُ سياحةٍ وآنسُها وأسرُّها إذ ليس القبر فم ثعبان مرعب، بل هو باب إلى روضة من رياض الجنة.

ويقول للمؤمن: إن كانت إرادتُك واختيارُك جزئية، ففوّض أمرك لإرادة مولاك الكلية.. وإن كان اقتدارُك ضعيفا فاعتمد على قدرة القادر المطلق.. وإن كانت حياتُك فانيةً وقصيرة ففكّر بالحياة الباقية الأبدية.. وإن كان عمرُك قصيرا فلا تحزن فإن لك عمرا مديدا.. وإن كان فكرُك خافتا فادخل تحت نور شمس القرآن الكريم، وانظر بنور الإيمان كي تمنَحك كلُّ آية من الآيات القرآنية نورا كالنجوم المتلألئة الساطعة بدلا من ضوء فكرك الباهت.. وإن كانت لك آمال وآلام غير محدودة فإن ثوابا لا نهاية له ورحمةً لا حد لها ينتظرانك.. وإن كانت لك غايات ومقاصد لا تحد، فلا تقلق متفكرا بها فهي لا تُحصر في هذه الدنيا، بل مواضعها ديار أخرى، ومانحها جواد كريم واسعُ العطاء.

ويخاطب الإنسان أيضا ويقول: أيها الإنسان! أنت لستَ مالكا لنفسك.. بل أنت مملوك للقادر المطلق القدرة، والرحيم المطلق الرحمة، فلا تُرهق نفسَك بتحميلها مشقةَ حياتك، فإن الذي وهَب الحياة هو الذي يديرها.

ثم إن الدنيا ليست سائبةً دون مالك، حتى تقلق عليها وتكلفَ نفسك حملَ أعبائها وترهق فكرك في أحوالها. ذلك لأن مالكَها حكيم ومولاها عليم، وأنت لستَ

إلّا ضيفا لديه، فلا تتدخل بفضولٍ في الأمور، ولا تخلطها من غير فهم.

ثم إن الإنسان والحيوان ليسوا موجودات مهملة، بل موظفون مأمورون تحت هيمنة حكيم رحيم وتحت إشرافه. فلا تجرّع روحَك ألما بالتفكر في مشاق أولئك وآلامهم ولا تقدّم رأفتك عليهم بين يدي رحمة خالقهم الرحيم.

ثم إن زمام أولئك الذين اتخذوا طورَ العداء معك ابتداء من الميكروبات إلى الطاعون والطوفان والقحط والزلازل، بل زمام كل شيء بيد ذلك الرحيم الكريم سبحانه، فهو حكيم لا يصدر منه عبث، وهو رحيم واسع الرحمة، فكل ما يعمله فيه أثر من لطف ورأفة.

ويقول أيضا: إنّ هذا العالَم مع أنه فانٍ فإنه يهيئ لوازم العالم الأبدي.. ومع أنه زائل ومؤقت إلّا أنه يؤتي ثمرات باقية، ويُظهر تجليات رائعة من تجليات الأسماء الحسنى الخالدة.. ومع أن لذائذه قليلة وآلامَه كثيرة، إلاّ أن لطائف الرحمن الرحيم وتَكَـرُّمه وتفضّلَه هي بذاتها لذّات حقيقية لا تزول، أما الآلامُ فهي الأخرى تولّد لذّاتٍ معنوية من جهة الثواب الأخروي. فما دامت الدائرةُ المشروعة كافيةً ليأخذ كلٌّ من الروح والقلب والنفس لذّاتِها ونشواتها

جميعا، فلا داعي إذن أن تلج في الدائرة غير المشروعة، لأن لذةً واحدة من هذه الدائرة قد يكون لها ألفُ ألمٍ وألم، فضلا عن أنها سببُ الحرمان من لذةِ تكريم الرحمن الكريم، تلك اللذة الخالصة الزكية الدائمة الخالدة.

هكذا تَبيّن مما سبق: بأن طريق الضلالة يردي الإنسان إلى أسفل سافلين، إلى حد تَعجز أيةُ مدنية كانت وأية فلسفة كانت عن إيجاد حل له، بل يَعجز الرقيُّ البشري وما بلغه من مراتب العلم عن إخراجه من تلك الظلمات السحيقة التي في الضلالة.

بينما القرآن الكريم يأخذ بيد الإنسان، بالإيمان والعمل الصالح، ويرفعه من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، ويبين له الدلائل القاطعة ويبسط أمامَه البراهين الدامغة على ذلك، فيردم تلك الأغوار العميقة بمراتب رقيٍّ معنوي وبأجهزة تكامل روحي.. وكذا ييسر له، بسهولة مطلقة، رحلتَه الطويلة المضنية العاصفة نحو الأبدية، ويهوّنها عليه؛ وذلك بإبرازه الوسائط والوسائل التي يمكن أن يقطع بها مسافة ألف سنة، بل خمسين ألف سنة في يوم واحد.

وكذا يضفي على الإنسان جلبابَ العبودية ويكسبه طورَ عبدٍ مأمور، وضيفٍ موظفٍ لدى الذات الجليلة، وذلك

بتعريفه أن الله سبحانه هو مالك الأزل والأبد، فيضمن له راحة تامة في سياحته في الدنيا المضياف أو في منازل البرزخ في ديار الآخرة.. فكما أن الموظف المخلص للسلطان يتجول بيُسر تام في دائرة مملكة سلطانه، ويتنقل من تخوم ولاياته بوسائط سريعة كالطائرة والباخرة والقطار، كذلك الإنسان المنتسب بالإيمان إلى المالك الأزلي فإنه يمرّ بالعمل الصالح من منازل الدنيا المضياف ومن دوائر عالَمي البرزخ والحشر ومن حدودهما الواسعة الشاسعة بسرعة البَرق والبُراق حتى يجد السعادة الأبدية.. فيُثبت القرآن الكريم هذه الحقائق إثباتا قاطعا ويبرزها عيانا للأصفياء والأولياء.

ثم تستأنف حقيقتُه قائلة: أيها المؤمن لا تبذلْ ما تملكه من قابلية غير محدودة للمحبة إلى نفسك التي هي أمّارة بالسوء وهي قبيحة ناقصة، وشريرة مضرة لك، ولا تتخذْها محبوبتك ومعشوقتك، ولا تجعل هواها معبودك، بل اجعل محبوبك مَن هو أهل لمحبة غير متناهية.. ذلكم القادر على الإحسان إليك إحسانا لا نهاية له، والقادر على إسعادك سعادة لا منتهى لها، بل يسعدك كذلك بما يجزل من إحساناته على جميع مَن ترتبط معهم بعلاقات، فهو الذي له الكمال المطلق والجمال المقدس والمنزّه عن كل نقص

وقصور وزوال وفناء.. فجمالُه لا حدود له وجميعُ أسمائه جميلة وحسنى.

نعم، إنّ في كل اسم من أسمائه أنوار حُسنٍ وجمال لا نهاية لها؛ فالجنة بجميع لطائفها وجمالها ونعيمها إنما هي تجلٍ لإظهار جمال رحمته ورحمة جماله، وجميع الحسن والجمال والمحاسن والكمالات المحبوبة والمحببة في الكون كله ما هي إلّا إشارة إلى جماله ودلالة على كماله سبحانه.

ويقول أيضا: أيها الإنسان! إن ينابيع المحبة المتفجرة في أعماقك والمتوجهة إلى الله سبحانه والمتعلقة بأسمائه الحسنى والمؤلّهة بصفاته الجليلة لا تجعلها مبتذلة بتشبثها بالموجودات الفانية، ولا تهدرها دون فائدة على المخلوقات الزائلة؛ ذلك لأن الآثار والمخلوقات فانيتان، بينما الأسماء الحسنى الباديةُ تجلياتُها وجمالُها على تلك الآثار وعلى تلك المصنوعات باقية دائمة.. ففي كل اسم من الأسماء الحسنى وفي كل صفة من الصفات المقدسة آلافٌ من مراتب الإحسان والجمال وآلاف من طبقات الكمال.

فانظر إلى اسم «الرحمن» فحسب لترى أن الجنة إحدى تجلياته، والسعادةَ الأبدية إحدى لمعاته، وجميعَ الأرزاق والنعم المبثوثة في أرجاء الدنيا كافة إحدى قطراته.

فأنعم النظر وتدبر في الآيات الكريمة التي تشير إلى هذه الموازنة بين ماهية أهل الضلالة وأهل الإيمان من حيث الحياة ومن حيث الوظيفة: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (التين:٤-٦) والآية الأخرى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ (الدخان:٢٩) هذه الآيات تشير إلى عقبى كل منهما. تأمل فيهما لتجد مدى سموهما وإعجازهما في بيان ما عقدناه من الموازنة والمقارنة.

أما الآيات الأولى فنحيل بيان حقيقة ما تتضمنه من إعجاز في إيجاز إلى الكلمة «الحادية عشرة» التي تبينها بيانا مفصلا. وأما الآية الثانية، فسنشير -إشارة فحسب- إلى مدى إفادتها عن حقيقة سامية وهي كالآتي:

إنها تخاطب قائلة: إن السماوات والأرض لا تبكيان على موت أهل الضلالة. وتدل بالمفهوم المخالف أن السماوات والأرض تبكيان على رحيل أهل الإيمان عن الدنيا. أي لما كان أهلُ الضلالة ينكرون وظائف السماوات والأرض ويتهمونهما بالعبثية ولا يدركون معانيَ ما يؤديانه من مهام، فيبخسون حقهما، بل لا يعرفون خالقَهما ولا دلالاتهما على صانعهما، فيستهينون بهما، ويتخذون منهما موقفَ العداء

والإهانة والاستخفاف، فلابد ألّا تكتفي السماواتُ والأرض بعدم البكاء عليهم، بل تدعوان عليهم بل ترتاحان لهلاكهم.

وتقول كذلك بالمفهوم المخالف: إن السماوات والأرض تبكيان على موت أهل الإيمان، لأنهم يعرفون وظائفهما، ويقدّرونهما حق قدرهما، ويصدّقون حقائقهما الحقة، ويفهمون بالإيمان ما تفيدان من معانٍ، حيث إنهم كلما تأملوا فيهما قالوا بإعجاب: «ما أجملَ خلقَهما! وما أحسن ما تؤديان من وظائف!». فيمنحونهما ما يستحقان من القيمة والاحترام، حيث يبثون حبهم لهما بحبهم لله، أي لأجل الله، باعتبارهما مرايا عاكسة لتجليات أسمائه الحسنى. ولهذا تهتز السماواتُ وتحزن الأرض، لموت أهل الإيمان وكأنهما تبكيان على زوالهم.

سؤال مهم

تقولون: إن المحبة ليست اختيارية، لا تقع تحت إرادتنا، فأنا بمقتضى حاجتي الفطرية أحب الأطعمة اللذيذة والفواكه الطيبة، وأحب والديّ وأولادي وزوجتي التي هي رفيقة حياتي، وأحب الأنبياء المكرمين والأولياء الصالحين، وأحب شبابي وحياتي وأحب الربيع وكل شيء

جميل، وبعبارة أوجز أنا أحب الدنيا، ولِمَ لا أحب كل هذه؟.. ولكن كيف أستطيع أن أقدّم جميع هذه الأنواع من المحبة لله، وأجعل محبتي لأسمائه الحسنى ولصفاته الجليلة ولذاته المقدسة سبحانه؟ ماذا يعني هذا؟.

الجواب: عليك أن تستمع إلى النكات الأربع الآتية:

النكتة الأولى:

إنّ المحبة وإن لم تكن اختيارية، إلّا أنها يمكن أن يُحوَّل وجهُها بالإرادة من محبوب إلى آخر؛ كأن يظهرَ قبحُ المحبوب وحقيقتُه مثلا، أو يُعرَف أنه حجاب وستار لمحبوب حقيقي يستحق المحبة، أو مرآة عاكسة لجمال ذلك المحبوب الحقيقي، فعندها يمكن أن يُصرَف وجهُ المحبة من المحبوب المجازي إلى المحبوب الحقيقي.

النكتة الثانية:

نحن لا نقول لك: لا تحمل ودّا ولا حبا لكل ما ذكرتَه آنفا. وإنما نقول اجعل محبتك لما ذكرتَه في سبيل الله ولوجهه الكريم.

فالتلذذ بالأطعمة الشهية وتذّوق الفواكه الطيبة مع التذكر بأنها إحسان من الله سبحانه وإنعام من الرحمن الرحيم، يعني المحبة لاسم «الرحمن» واسم «المنعم»

من الأسماء الحسنى، علاوة على أنه شكر معنوي. والذي يدلنا على أن هذه المحبة لم تكن للنفس والهوى بل لاسم «الرحمن» هو كسب الرزق الحلال مع القناعة التامة ضمن الدائرة المشروعة، وتناوله بالتفكر في أنه نعمة من الله مع الشكر له.

ثم إنّ محبتك للوالدين واحترامهما، إنما يعودان إلى محبتك لله سبحانه؛ إذ هو الذي غرس فيهما الرحمة والشفقة حتى قاما برعايتك وتربيتك بكل رحمة وحكمة. وعلامة كونهما محبة لوجه الله تعالى، هي المبالغة في محبتهما واحترامهما عندما يبلغان الكبر، ولا يبقى لك فيهما من مطمَع. فتُكثر من الشفقة عليهما والرحمة لهما رغم ما يشغلانك بالمشاكل ويثقلان كاهلك بالمشقة. فالآية الكريمة: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (الإسراء:٢٣-٢٤) تدعو الأولاد إلى رعاية حقوق الوالدين في خمس مراتب، وتبين مدى أهمية برّهما وشناعة عقوقهما..

وحيث إنّ الوالد لا يقبل أن يتقدمَه أحد سوى ابنه إذ لا يحمل في فطرته حسدا إليه مما يسدّ على الولد طريق مطالبة

حقِّه من الوالد؛ لأن الخصام إما ينشأ من الحسد والمنافسة بين اثنين أو ينشأ من غمط الحق، فالوالدُ سليم معافى منهما فطرة، لذا لا يحق للولد إقامةُ الدعوى على والده، بل حتى لو رأى منه بغيا فليس له أن يعصيه ويعقّه. بمعنى أن من يعقّ والديه ويؤذيهما ما هو إلّا إنسان ممسوخ حيوانا مفترسا.

أما محبةُ الأولاد فهي كذلك محبة لله تعالى وتعود إليه، وذلك بالقيام برعايتهم بكمال الشفقة والرحمة بكونهم هبةً من الرحيم الكريم. أما العلامة الدالة على كون تلك المحبةِ لله وفي سبيله فهي الصبرُ مع الشكر عند البلاء، ولا سيّما عند الموت والترفّع عن اليأس والقنوط وهدر الدعاء، بل يجب التسليم بالحمد عند القضاء. كأن يقول: إن هذا المخلوق محبوب لدى الخالق الكريم، ومملوك له، وقد أمِنَنِي عليه لفترة من الزمن، فالآن اقتضت حكمتُه سبحانه أن يأخذه مني إلى مكان آمَن وأفضل. فإن تكُ لي حصة واحدة ظاهرية فيه، فله سبحانه ألفُ حصة حقيقية فيه. فلا مناص إذن من التسليم لحكم الله.

أما محبة الأصدقاء وودّهم، فإن كانوا من أصحاب الإيمان والتقوى فإن محبتهم هي في سبيل الله وتعود إليه سبحانه بمقتضى «الحب في الله».

ثم إن محبة الزوجة وهي رفيقةُ حياتك، فعليك بمحبتها على أنها هدية أنيسة لطيفة من هدايا الرحمة الإلهية. وإياك أن تربط محبتَك لها برباط الجمال الظاهري السريع الزوال، بل أوثقها بالجمال الذي لا يزول ويزداد تألقا يوما بعد يوم، وهو جمالُ الأخلاق والسيرة الطيبة المنغرزة في أنوثتها ورقّتها. وإن أحلى ما فيها من جمال وأسماه هو في شفقتها الخالصة النورانية. فجمال الشفقة هذا، وحُسن السيرة يدومان ويزدادان إلى نهاية العمر. وبمحبتهما تُصان حقوقُ هذه المخلوقة اللطيفة الضعيفة، وإلّا تفقدْ حقوقَها في وقت هي أحوج ما تكونُ إليها، بزوال الجمال الظاهري.

أما محبة الأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحين فهي أيضا لوجه الله وفي سبيله من حيث إنهم عباد الله المخلصون المقبولون لديه جل وعلا. فمن هذه الزاوية تصبح تلك المحبة لله.

والحياة أيضا التي وهبها الله سبحانه وتعالى لك وللإنسان، هي رأس مال عظيم تستطيع أن تكسب به الحياة الأخروية الباقية. وهي كنز عظيم يحوي أجهزةً وكمالاتٍ خالدة.. من هنا فالمحافظة عليها ومحبتها من هذه الزاوية، وتسخيرها في سبيل المولى عز وجل تعود إلى الله سبحانه أيضا.

ثم إن محبة الشباب وجماله ولطافته، وتقديره من حيث إنه نعمة ربانية جميلة، ثم العمل على حسن استخدامه، هي محبة مشروعة، بل مشكورة.

ثم محبة الربيع والشوق إليه تكون في سبيل الله ومتوجهةً إلى أسمائه الحسنى، من حيث كونه أجملَ صحيفةٍ لظهور نقوش الأسماء الحسنى النورانية وأعظمَ معرضٍ لعرض دقائق الصنعة الربانية البديعة.. فالتفكر في الربيع من هذه الزاوية محبة متوجهة إلى الأسماء الحسنى.

وحتى حبُّ الدنيا والشغفُ بها ينقلب إلى محبةٍ لوجه الله تعالى فيها إذا كان النظر إليها من زاوية كونها مزرعةَ الآخرة، ومرآةَ الأسماء الحسنى، ورسائلَ ربانية إلى الوجود، ودار ضيافة موقتة -وعلى شرط عدم تدخل النفس الأمارة في تلك المحبة-.

ومجمل القول: اجعل حبك للدنيا وما فيها من مخلوقات بالمعنى «الحرفي» وليس بالمعنى «الاسمي» أي لمعنى ما فيها وليس لذاتها. ولا تقل لشيء: «ما أجملَ هذا» بل قل: «ما أجملَه خَلقا» أو «ما أجمل خَلقه»! وإياك أن تترك ثغرة يدخل منها حب لغير الله في باطن قلبك، فإن باطنه مرآة الصمد، وخاص به سبحانه وتعالى. وقل: اللهم ارزقنا حبَّك وحبَّ ما يقرّبنا إليك.

وهكذا فإن جميع ما ذكرناه من أنواع المحبة، إن وجِّهَت الوجهة الصائبة على الصورة المذكورة آنفا، أي عندما تكون لله وفي سبيله، فإنها تورث لذة حقيقية بلا ألم. وتكون وصالا حقا بلا زوال، بل تزيد محبة الله سبحانه وتعالى، فضلا عن أنها محبة مشروعة وشكر لله في اللذة نفسها، وفكر في آلائه في المحبة عينها.

مثال للتوضيح: إذا أهدى إليك سلطان عظيم[1] تفاحةً -مثلا- فإنك ستكنّ لها نوعين من المحبة، وستلتذ بها بشكلين من اللذة:

الأولى: المحبة التي تعود إلى التفاحة، من حيث إنها فاكهة طيبة فيها لذة بقدر ما فيها من خصائص، هذه المحبة لا تعود إلى السلطان. بل مَن يأكلها بشراهة أمامه يبدي محبتَه للتفاحة وليس للسلطان، وقد لا يعجب السلطان ذلك التصرف منه، وينفر من تلك المحبة الشديدة للنفس. علاوة على أن لذة التفاحة جزئية وهي في زوال. إذ بمجرد الانتهاء من أكلها تزول اللذةُ وتورث الأسف.

أما المحبة الثانية: فهي للتكرمة السلطانية والتفاتته اللطيفة التي ظهرت بالتفاحة.. فكأن تلك التفاحة نموذج

(١) لقد وقعت هذه الحادثة فعلا فيما مضى، عندما دخل رئيسا عشيرتين إلى سلطانٍ عظيم وقاما بمثل ما ذكر أعلاه. (المؤلف)

للتوجه السلطاني، أو هي ثناء مجسّم منه. فالذي يتسلم هديةَ السلطان حبا وكرامةً يبدي محبتَه للسلطان وليس للتفاحة. علما أن في تلك التفاحة التي صارت مظهرا للتكرمة لذةً تفوق وتسمو على ألف تفاحة أخرى. فهذه اللذة هي الشكران بعينه، وهذه المحبة هي محبةٌ ذاتُ احترام وتوقيرٍ يليق بالسلطان.

وهكذا فإذا ما وجّه الإنسانُ محبتَه إلى النِعم والفواكه بالذات وتلذذ عن غفلةٍ بلذاتها المادية وحدَها، فتلك محبة نفسانية تعود إلى هوى النفس، وتلك اللذات زائلة مؤلمة. أما إذا كانت المحبةُ متوجهة إلى جهة التكرمة الربانية ونحوَ ألطاف رحمته سبحانه وثمرات إحسانه، مقدّرا درجات الإحسان واللطف ومتلذذا بها بشهية كاملة، فهي شكر معنوي، وهي لذة لا تورث ألما.

النكتة الثالثة:

إنّ المحبة المتوجهة إلى الأسماء الحسنى لها طبقات: فقد تتوجه بالمحبة إلى الأسماء الحسنى بمحبة الآثار الإلهية المبثوثة في الكون -كما بيناه سابقا- وقد تتوجه بالمحبة إلى الأسماء الحسنى لكونها عناوينَ كمالات إلهية سامية، وقد يكون الإنسان مشتاقا إلى الأسماء الحسنى لحاجته الماسة

إليها، وذلك لجامعية ماهيته وعمومها وحاجاته غير المحدودة، أي يحب تلك الأسماء بدافع الحاجة إليها.

ولنوضح ذلك بمثال: تصور وأنت تستشعر عجزَك وحاجتَك الشديدة إلى مَن يساعدك ويعينك لإنقاذ مَن تحنّ عليهم وتشفق على أوضاعهم من الأقارب والفقراء، وحتى المخلوقات الضعيفة المحتاجة، إذا بأحدهم يبرز في الميدان، ويُحسن لأولئك ويتفضل عليهم ويسبغ عليهم نِعَمه بما تريده وترغبه.. فكم تطيب نفسُك وكم ترتاح إلى اسمه «المنعم» و«الكريم».. وكم تنبسط أساريرُك وتنشرح من هذين الاسمين، بل كم يأخذ ذلك الشخص من إعجابك وتقديرك، وكم تتوجه إليه بالحب بذينك الاسمَين والعنوانَين!.

ففي ضوء هذا المثال تدبّر في اسمين فقط من الأسماء الحسنى وهما: «الرحمن» و«الرحيم» تجد أن جميع المؤمنين من الآباء والأجداد السالفين وجميعَ الأحبة والأقارب والأصدقاء، هؤلاء الذين تحبهم وتحن إليهم وتشفق عليهم، يُنعَمون في الدنيا بأنواعٍ من النعم اللذيذة، ثم يُسعَدون في الآخرة بما لذّ وطابَ من النعم، بل يزيدهم سبحانه وهو الرحمن الرحيم سعادةً ونعيما بلقاء بعضهم

بعضا وبرؤية الجمال السرمدي هناك.. فكم يكون اسما «الرحمن» و«الرحيم» جديرَين إذن بالمحبة؟ وكم تكون روح الإنسان توّاقة إليهما؟ قس بنفسك ذلك لتدرك مدى صواب قولنا: الحمد لله على رحمانيته ورحيميته.

ثم إنك تتعلق بالموجودات المبثوثة على الأرض وتتألم بشقائها، حتى لكأن الأرض برمّتها مسكنُك الجميل وبيتك المأنوس؛ فإذا ما أنعمتَ النظر تجد في روحك شوقا عارما وحاجةً شديدة إلى اسم «الحكيم» وعنوان «المربي» للذي ينظم هذه المخلوقات كافة بحكمة تامة وتنظيم دقيق وتدبير فائق وتربية رحيمة.

ثم إذا أنعمتَ النظر في البشرية جمعاء تجدك تتعلق بهم وتتألم لحالهم البائسة وتتألم أشد الألم بزوالهم وموتهم، وإذا بروحك تشتاق إلى اسم «الوارث الباعث» وتحتاج إلى عنوان «الباقي، الكريم، المحيي، المحسن» للخالق الكريم الذي ينقذهم من ظلمات العدم ويسكنهم في مسكن أجمل من الدنيا وأفضل منها.

وهكذا فلأن ماهية الإنسان عالية وفطرتَه جامعة فهو محتاج بألف حاجة وحاجة إلى ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى وإلى كثير جدا من مراتب كل اسم. فالحاجة

المضاعَفة هي الشوقُ، والشوق المضاعَف هو المحبة، والمحبة المضاعفة كذلك هي العشق. فحسبَ تكمّل روح الإنسان تنكشف مراتبُ المحبة وفق مراتب الأسماء. ومحبةُ جميع الأسماء أيضا تتحول إلى محبة ذاته الجليلة سبحانه، إذ إن تلك الأسماء عناوينُ وتجليات ذاته جلّ وعلا.

والآن سنبين من بين ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى مرتبةً واحدة فقط وعلى سبيل المثال من بين ألف مرتبة ومرتبة لاسم «العدل والحكم والحق والرحيم» على النحو الآتي: إن شئت أن تشاهد ما في نطاق الحكمة والعدل من اسم «الرحمن الرحيم، الحق» ضمن دائرة واسعة عظمى فتأمل في هذا المثال:

جيش يضم أربعمائة طائفة متنوعة من الجنود، كل منها تختلف عن الأخرى فيما يعجبها من ملابس، وتتباين فيما تشتهيه من أطعمة وتتغاير فيما تستعمله بيُسر من أسلحة، وتتنوع فيما تتناوله من علاجات تناسبها.. فعلى الرغم من هذا التباين والاختلاف في كل شيء، فإن تلك الطوائف الأربعمائة لا تتميز إلى فرق وأفواج، بل يتشابك بعضُها في بعض من دون تمييز.. فإذا ما وُجد سلطان واحد يعطي لكل طائفة ما يليق بها من ملابس، وما يلائمها من أرزاق،

وما يناسبها من علاج، وما يوافقها من سلاح، بلا نسيانٍ لأحد ولا التباس ولا اختلاط، ومن دون أن يكون له مساعد ومعين، بل يوزعها كلَّها عليهم بذاته، بما يتصف به من رحمة ورأفة وقدرة وعلم معجِز وإحاطة تامة بالأمور كلها، مع عدالة فائقة وحكمة تامة.. نعم، إذا ما وُجد سلطان كهذا الذي لا نظير له، وشاهدتَ بنفسك أعماله المعجزة الباهرة، تدرك عندئذٍ مدى قدرتِه ورأفته وعدلِه. ذلك لأن تجهيز كتيبة واحدة تضم عشرة أقوام مختلفين بأعتدةٍ متباينة وألبسةٍ متنوعة أمر عسير جدا، حتى يُلجأ إلى تجهيز الجيش بطراز معيّن ثابت من الألبسة والأعتدة مهما اختلفت الأجناس والأقوام.

فإذا شئت -في ضوء هذا المثال- أن ترى تجلي اسم الله «الحق» و«الرحمن الرحيم» ضمن نطاق العدل والحكمة، فسرّح نَظَرَك في الربيع إلى تلك الخيام المنصوبة على بساط الأرض لأربعمائة ألف من الأمم المتنوعة، الذين يمثلون جيش النباتات والحيوانات، أنعِم النظر فيها تجد أن جميع تلك الأمم والطوائف، مع أنها متداخلة، وألبستُهم مختلفة وأرزاقهم متفاوتة وأسلحتُهم متنوعة وطرق معيشتهم متباينة وتدريبهم وتعليماتهم متغايرة، وتسريحاتهم

وإجازاتهم متميزة.. وهم لا يملكون ألسنةً يطالِبون بها تأمين حاجاتهم وتلبية رغباتهم.. مع كل هذا فإن كلا منها تُدار وتُربى وتراعى باسم «الحق والرحمن والرزاق والرحيم والكريم» دون التباسٍ ولا نسيان ضمن نطاق الحكمة والعدل بميزان دقيق وانتظام فائق.. فشَاهِد هذا التجلي وتأمّل فيه؛ فهل يمكن أن يتدخل أحد غيرُ الله سبحانه وتعالى في هذا العمل الذي يُدار بمثل هذا النظام البديع والميزان الدقيق؟ وهل يمكن لأي سبب مهما كان أن يمدّ يدَه ليتدخل في هذه الصنعة الباهرة والتدبير الحكيم والربوبية الرحيمة والإدارة الشاملة غيرُ الواحد الأحد الحكيم القدير على كل شيء؟..

النكتة الرابعة:

تقول إنني أحمل أنواعا متباينة من المحبة في نفسي، تتعلق بالأطعمة اللذيذة، وبنفسي وزوجتي وبأولادي ووالديّ وبأحبابي وأصدقائي، وبالأولياء الصالحين والأنبياء المكرمين، بل يتعلق حبي بكل ما هو جميل، وبالربيع الزاهي خاصة وبالدنيا عامة.. فلو سارت هذه الأنواع المختلفة من المحبة وفق ما يأمر به القرآن الكريم، فما تكون نتائجُها وما فوائدُها ؟.

الجواب: إنّ بيان تلك النتائج وتوضيح تلك الفوائد كلِّها يحتاج إلى تأليف كتاب ضخم في هذا الشأن، لذا سنشير هنا إلى نتيجة واحدة أو نتيجتين منها إشارة مجملة. وسنبين أولا النتائج التي تحصل في الدنيا، ثم بعد ذلك نبين النتائج التي ستظهر في الآخرة. وهي كالآتي:

لقد ذكرنا سابقا: أن أنواع المحبة التي لدى أرباب الغفلة والدنيا والتي لا تنبعث إلاّ لإشباع رغبات النفس، لها نتائج أليمة وعواقب وخيمة من بلايا ومشقات، مع ما فيها من نشوة ضئيلة وراحة قليلة. **فمثلا:** الشفقة تصبح بلاءً مؤلما بسبب العجز، والحب يغدو حُرقة مفجعة بسبب الفراق، واللذة تكون شرابا مسموما بسبب الزوال.. أما في الآخرة فستبقى دون جدوى ولا نفع، لأنها لم تكن في سبيل الله تعالى، أو تكون عذابا أليما إن ساقت إلى الوقوع في الحرام.

سؤال: كيف يظل حب الأنبياء الكرام والأولياء الصالحين دون نفع أو فائدة؟

الجواب: مثلما لا ينتفع النصارى المعتقدون بالتثليث من حبهم لسيدنا عيسى عليه السلام، وكذا الروافض من حبهم لسيدنا علي رضي الله عنه!

أما ما ذكرتَه من أنواع المحبة فإن كانت وفق إرشاد

القرآن الكريم وفي سبيل الله سبحانه وتعالى ومحبة الرحمن الرحيم، فإن نتائج جميلة تثمر في الدنيا، فضلا عن نتائجها الطيبة الخالدة في الآخرة.

أما نتائجها في الدنيا: فإن محبتك للأطعمة اللذيذة والفواكه الطيبة فهي نعمة إلهية لا يشوبها ألم، ولذة لطيفة في الشكر بعينه.

أما محبتُك لنفسك أي إشفاقك عليها، والجهدُ في تربيتها وتزكيتها، ومنعها عن الأهواء الرذيلة، تجعلها منقادة إليك، فلا تسيّرك ولا تقيدك بأهوائها بل تسوقُها أنت إلى حيث الهدى دون الهوى.

أما محبتك لزوجتك وهي رفيقة حياتك، فلأنها قد أسست على حُسن سيرتها وطيب شفقتها، وكونها هبةً من الرحمة الإلهية، فستوليها حبا خالصا ورأفة جادة، وهي بدورها تبادلك هذه المحبة مع الاحترام والتوقير، وهذه الحالة تزداد بينكما كلما تقدمتما في العمر، فتقضيان حياة سعيدة هنيئة بإذن الله.. ولكن لو كان ذلك الحب مبنيا على جمال الصورة الذي تهواه النفس، فإنه سرعان ما يخبو ويذبل، وتفسد الحياة الزوجية أيضا.

أما محبتك للوالد والوالدة، فهي عبادة تُثاب عليها

ما دامت في سبيل الله، ولا شك أنك ستزيد الحب والاحترام لهما عندما يبلغان الكِبَر، وتكسب لذة روحية خالصة وراحة قلبية تامة لدى القيام بخدمتهما وتقبيل أيديهما وتبجيلهما بإخلاص، فتتوجه إلى المولى القدير، وأنت تشعر هذا الشعور السامي والهمة الجادة، بأن يطيلَ عمرَهما لتحصل على مزيد من الثواب.. ولكن لو كان ذلك الحب والاحترام لأجل كسب حطام الدنيا ونابعا من هوى النفس، فإنه يولد ألما روحيا قاتما ينبعث من شعور سافل منحط وإحساس دنيء وضيع هو النفور من ذينك الموقَّرين اللذين كانا السبب لحياتكَ أنت، واستثقالهما وقد بلغا الكِبر وباتا عبئا عليك، ثم الأدهى من ذلك تمنّي موتهما وترقّب زوالهما!

أما محبتك لأولادك، أي حُبكَ لمَن استودعك الله إياهم أمانةً، لتقوم بتربيتهم ورعايتهم.. فحب أولئك المؤنسين المحبوبين من خلق الله، إنما هو حب مكلل بالسعادة والبهجة، وهو نعمة إلهية في الوقت نفسه، فإذا شعرت بهذا فلا يَنتَبْك الحزن على مصابهم ولا تصرخ متحسرا على وفاتهم. إذ -كما ذكرنا سابقا- إن خالقهم رحيم بهم حكيم في تدبير أمورهم وعند ذلك تقول إن الموت بحق هؤلاء هو سعادة لهم. فتنجو بهذا من ألم الفراق وتتفكر أن تستدر رحمته تعالى عليك.

أما محبتك للأصدقاء والأقرباء، فلأنها لوجه الله تعالى، فلا يُحول فراقُهم ولا موتهم عن دوام الصحبة معهم، ودوام أخوتكم ومحبتكم ومؤانستكم؛ إذ تدوم تلك الرابطة الروحية والحب المعنوي الخالص، فتدوم بدورهما لذةُ اللقاء ومتعةُ الوصال.. ولكن إن لم يكن ذلك الحب لأجله تعالى ولا في سبيله، فإن لذة لقاء يوم واحد يورث آلامَ الفراق لمائة يوم.[1]

أما محبتك للأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحين، فإن عالم البرزخ الذي هو عالم مظلم موحش في نظر أرباب الضلالة والغفلة تراه منازلَ من نور تنورت بأولئك المنورين، وعندها لا تستوحش من اللحاق بهم، ولا تجفل من عالم البرزخ، بل تشتاق إليه، وتحن إليه من دون أن يعكر ذلك تمتعك بالحياة الدنيا.. ولكن لو كان حبُّهم شبيها بحب أرباب المدنية لمشاهير الإنسانية، فإن مجرد التفكر في فناء أولئك الأولياء الكاملين، وترمّم عظامهم في مقبرة الماضي الكبرى، يزيد ألما على آلام الحياة، ويدفع المرء إلى تصور موته وزواله حيث يقول: سأدخل يوما هذه المقبرة التي ترمّم عظام العظماء! يقوله بكل مرارة وحسرة وقلق.. بينما

(١) إن ثانية واحدة من لقاء في سبيل الله تعالى تعد سنة من العمر، بينما سنة من لقاء لأجل الدنيا الفانية لا تساوي ثانية. (المؤلف)

في المنظور الأول يراهم يقيمون براحة وهناء في عالم البرزخ الذي هو قاعة المستقبل ورواقُه، بعد أن تركوا ملابسهم الجسدية في الماضي.. فينظر إلى المقبرة نظرة شوق وأنس.

ثم إن محبتك للأشياء الجميلة والأمور الطيبة، لما كانت محبة في سبيل الله، وفي سبيل معرفة صانعها الجليل بحيث يجعلك تقول: ما أجمل خلقَه!. فإن هذه المحبة في حد ذاتها تفكُّر ذو لذة ومتعة، فضلا عن أنها تفتح السبيل أمام أذواقِ حب الجمال والشوق إلى الحسن لتتطلع إلى مراتب أذواق أسمى وأرفع، وتريه هناك كنوز تلك الخزائن النفيسة فيتملاها المرءُ في نشوة سامية عالية؛ ذلك لأن هذه المحبة تفتح آفاقا أمام القلب ليحوّل نظرَه من آثار الصانع الجليل إلى جمال أفعاله البديعة، ومن جمال الأفعال إلى جمال أسمائه الحسنى، ومن جمال الأسماء الحسنى إلى جمال صفاته الجليلة، ومن جمال الصفات الجليلة إلى جمال ذاته المقدسة.. فهذه المحبة وبهذا السبيل إنما هي عبادة لذيذة وتفكر رفيع ممتع في الوقت نفسه.

أما محبتك للشباب، فلأنك قد أحببتَ عهد شبابك لكونه نعمة جميلة لله سبحانه، فلا شك أنك ستصرفه في عبادته تعالى ولا تقتله غرقا في السَفه وتماديا في الغي؛

إذ العبادات التي تكسبها في عهد الشباب إنما هي ثمرات يانعة باقية خالدة أثمرها ذلك العهدُ الفاني، فكلما جاوزت ذلك العهد وطعنت في السن حصلت على مزيد من ثمراته الباقية، ونجوت تدريجيا من آفات النفس الأمارة بالسوء وسيئات طيش الشباب. فترجو من المولى القدير أن يوفقك إلى كسب المزيد من العبادة في الشيخوخة، لتكون أهلا لرحمته الواسعة. وتربأ بنفسك أن تكون مثل أولئك الغافلين الذين يقضون خمسين سنة من عمر شيخوختهم وشيبهم أسفا وندما على ما فقدوه من متاع الشباب في خمس أو عشر سنوات. حتى عبّر أحد الشعراء عن ذلك الندم والأسف بقوله:

فيالَيتَ الشَبابَ يعودُ يوما
فأخبرَه بِمَا فَعَلَ المَشِيبُ[1]

أما محبتك للمناظر البهيجة ولا سيّما مناظر الربيع، فحيث إنها مشاهدة لبدائع صُنع الله والاطلاع عليها، فذهاب ذلك الربيع لا يزيل لذةَ المشاهدة ومتعة التفرج، إذ يترك وراءه معانيَه الجميلة، حيث الربيع أشبه ما يكون برسالة ربانية زاهية تُفتح للمخلوقات. فخيالك والزمن

(١) لأبي العتاهية. الإبشهي، المستطرف في كل فن مستظرف ٢/ ٧١؛ الجاحظ، البيان والتبيين ١/ ٤٢٩.

شبيهان بالشريط السينمائي يديمان لك لذة المشاهدة هذه، ويجددان دوما تلك المعاني التي تحملها رسالةُ الربيع. فلا يكون حبُّك إذن مؤقتا ولا مغمورا بالأسف والأسى، بل صافيا خالصا لذيذا ممتعا.

أما حبك للدنيا، فلأنه حب لله ولأجله سبحانه، فإن موجوداتها المثيرة للرعب والدهشة تصبح لك أصدقاء مؤنسين، ولأنك تتوجه إليها بالحب من حيث كونها مزرعة الآخرة، تستطيع أن تجني من كل شيء فيها ما يمكن أن يكون ثمرة من ثمار الآخرة، أو تغنم منها ما يمكن أن يكون رأس مال للآخرة. فمصائبُها إذن لا تخيفك وزوالُها وفناؤها لا يضايقك. وهكذا تقضي مدة أقامتك فيها، وأنت ضيف مكرم.. ولكن لو كان حبك لها كحب أرباب الغفلة، فقد قلنا لك مرارا: ستغرق نفسَك وتفنى بحبٍ ساحقٍ، خانق، زائل، لا طائل وراءه ولا نفع!.

وهكذا فقد حاولنا أن نُري لطيفةً واحدة من مئات اللطائف التي تعود لكلٍ مما ذكرتَه، عندما يكون حبك له وفق إرشاد القرآن الكريم، وأشرنا في الوقت نفسه إلى واحد من مئات أضرار ذلك الحب إن لم يكن وفق ما يأمر به القرآن الكريم.

* * *

فإن كنت تريد أن تدرك نتائج هذه الأنواع المختلفة من المحبة في دار البقاء وعالم الآخرة، مثلما أشارت إليها الآيات البينات للقرآن الكريم، فسنبين لك بيانا مجملا فائدة واحدة أخروية من فوائد تلك الأنواع المشروعة من المحبة، وذلك في تسع إشارات، بعد أن نقدم بين يديها مقدمة:

المقدمة

إن الله سبحانه وتعالى -بألوهيته الجليلة، ورحمته الجميلة، وربوبيته الكبيرة، ورأفته الكريمة، وقدرته العظيمة، وحكمته اللطيفة- قد زيّن هذا الإنسان الصغير بحواسَّ ومشاعرَ كثيرة جدا، وجمّله بجوارحَ وأجهزةٍ وأعضاءٍ مختلفة عديدة؛ ليُشعره بطبقات رحمته الواسعة ويذيقَه أنواع آلائه التي لا تعد، ويعرّفه أقسام إحساناته التي لا تحصى، ويُطلعه عبر تلك الأجهزة والأعضاء الكثيرة على أنواع تجلياته التي لا تُحد لألف اسم واسم من أسمائه الحسنى، ويحببها إليه، ويجعله يُحسن تقديرَها حق قدرها.

فلكل عضو من تلك الأعضاء الكثيرة، ولكل جهاز وآلة منها، وظائفُها المتنوعة وعباداتُها المتباينة كما أن لذائذها مختلفة وآلامَها متغايرة وثوابَها متميز.

فمثلا: العين، تشاهد الجمال في الصور، وترى معجزات القدرة الإلهية الجميلة في عالم الشهود، فتؤدي وظيفتها

بتقديم الشكر لله من خلال نظرتها ذات العبرة. ولا يخفى على أحد مدى ما في هذه الرؤية من لذةٍ وما يحصل من زوالها من ألم، لذا لا داعي لتعريف لذة الرؤية وألَم فقدانها... **ومثلا:** الأذن، تشعر بلطائف الرحمة الإلهية السارية في عالم المسموعات، بسماعها أنواع الأصوات ونغماتها اللطيفة المختلفة. فلها عبادة خاصة بها، ولذة تخصها، وثواب يعود إليها... **ومثلا:** حاسة الشم التي تشعر بلطائف الرحمة الإلهية الفوّاحة من شذى أنواع العطور والروائح، فإن لها لذتها الخاصة به ضمن أدائها شكرها الخاص، ولا شك أن لها ثوابا خاصا بها... **ومثلا:** حاسة الذوق التي في الفم. فهي تؤدي وظيفتها وتُقدم بشكرها المعنوي بأنماط شتى من خلال إدراكها مذاقات أنواع الأطعمة ولذائذها.

وهكذا فلكل جهاز من أجهزة الإنسان ولكل حاسة وجارحة، ولكل لطيفة من لطائفه المهمة -كالقلب والروح والعقل وغيرها- وظائفُها المختلفة، ولذائذُها المتنوعة الخاصة بها. فمما لا ريب فيه أن الخالق الحكيم الذي سخّر هذه الأجهزة لتلك الوظائف سيجزى كلا منها بما يلائمها ويستحقها من جزاء.

إنّ النتائج العاجلة للأنواع المتعددة من المحبة -المذكورة سابقا- يشعر بها كل إنسان شعورا وجدانيا،

ويستدل على شعوره هذا ويتيقن منه بحدس صادق. أما نتائجها الأخروية فقد أثبتتها اثنتا عشرة حقيقة من الحقائق الساطعة للكلمة العاشرة والأسس الستة الباهرة للكلمة التاسعة والعشرين.

أما تفصيلها فهو ثابت قطعا بالقرآن الكريم الذي هو أصدقُ كلام وأبلغُ نظام وهو كلام الله الملك العزيز العلام، في تصريح آياته البينات وتلويحها وفي رموزها وإشاراتها.. لذا لا نرى داعيا لإيراد براهين مطولة في هذا الشأن، علما أننا سردنا براهين كثيرة جدا في «كلمات» أخرى وفي المقام الثاني العربي من «الكلمة الثامنة والعشرين» الخاصة بالجنة وفي «الكلمة التاسعة والعشرين».

الإشارة الأولى:

إنّ النتيجة الأخروية للمحبة المشروعة المكللة بالشكر لله، نحو الأطعمة اللذيذة والفواكه الطيبة في الدنيا، هي تلك الأطعمة والفواكه الطيبة اللائقة بالجنة الخالدة.. كما ينص عليه القرآن الكريم. هذه المحبة، محبة ذات اشتياق واشتهاء لتلك الجنة وفواكهها. حتى إن الفاكهة التي تأكلها في الدنيا وتذكر عليها «**الحمد لله**» تتجسم في الجنة فاكهةً خاصة بها وتقدَّم إليك طيبةً من طيبات الجنة.

فأنت تأكل هنا فاكهةً، وهناك «**الحمد لله**» مجسّمة في فاكهة من فواكه الجنة.. وحيث إنك تقدّم شكرا معنويا لذيذا برؤيتك الإنعام الإلهي والالتفات الرباني في الأطعمة والفواكه التي تتناولها هنا، فستسلّم إليك هناك في الجنة أطعمة لذيذة وفواكه طيبة، كما هو ثابت في الحديث الشريف وبإشارات القرآن الكريم، وبمقتضى الحكمة الإلهية ورحمتها الواسعة.

الإشارة الثانية:

إن نتيجة المحبة المشروعة نحو النفس، أي محبتها المبنية في الدنيا على رؤية نقائصها دون محاسنها، ومحاولة إكمالها، وتزكيتها ورعايتها بالشفقة والرأفة، ودفعها إلى سبيل الخير، هي إعطاء البارئ عز وجلّ محبوبين يليقون بها وبالجنة، فالنفس التي عافت في الدنيا هواها وشهواتها وتركت رغباتها في سبيل الله، واستُعمل ما فيها من أجهزة متنوعة على أفضل وجه وأتمه، سيمنحها البارئ الكريم سبحانه، مكافأة على هذه المحبة المشروعة المُكللة بالعبودية لله، الحورَ العين المترفلات بسبعين حُلّة من حُلل الجنة المتنوعة بأنواع لطائفها وزينتها، والمتجملات بسبعين نوعا من أنواع الحسن والجمال، حتى كأنهن جنة مجسمة مصغرة تنبض

بالروح والحياة، لتقرّ بها عينُ النفس التي أطاعت الله وتهدأ بها المشاعر التي اطمأنت إلى أوامر الله.. فهذه النتيجة لا ريب فيها، إذ الآيات الكريمة تصرح بها يقينا.

ثم إن نتيجة المحبة المتوجهة نحو الشباب في الدنيا، أي صرف قوة الشباب ونضارتِه في العبادة والتقوى، هي شباب دائم خالد في دار البقاء والنعيم المقيم.

الإشارة الثالثة:

أما النتيجة الأخروية لمحبة الزوجة المؤسسَة على حُسن سيرتها وجميلِ خصلتها ولطيف شفقتها، والتي تصونها عن النشوز وتُجنّبها الخطايا والذنوب، فهي جعلُ تلك الزوجة الصالحة محبوبةً ومُحبةً وصديقة صدوقة وأنيسة مؤنسة، في الجنة، جمالُها أبهى من الحور العين، زينتُها أزهى من زينتهن، حُسنها يفوق حُسنهن.. تتجاذب مع زوجها أطراف الحديث، يستذكران أحداث أيام خلَت.. هكذا وعد الرحيم الكريم. فما دام قد وعد فسيفي بوعده حتما.

الإشارة الرابعة:

أما نتيجة محبة الوالدين والأولاد فهي أن الرحمن الرحيم جل وعلا يُحسن إلى تلك العائلة السعيدة المحظوظة، رغم تفاوت مراتبهم في الجنة بلقاء بعضهم البعض والمعاشرة

والمجالسة والمحادثة فيما بينهم بما يليق بالجنة ودار البقاء، كما هو ثابت بنص القرآن الكريم. ويُنعم على أولئك الآباء بملاطفة أولادهم الذين توفّوا في دار الدنيا قبل سن البلوغ، ويجعلُهم لهم ولدانا مخلّدين، في ألطف وضعٍ وأحبّه إلى نفوسهم، وبهذا تُطمئَن رغبةُ مداعبة الأطفال المغروزة في فطرة الإنسان، فيستمتعون بمتعة خالدة وذوق دائم في الجنة، حيث خُلّد لهم أطفالُهم الصغار -الذين لم يبلغوا سن التكليف- ولقد كان يُظَن أن ليس في الجنة مداعبةُ الأطفال، لأنها ليست محلا للتوالد. ولكن الجنة لأنها تحوى أفضل لذائذ الدنيا وأجودَها، فملاطفة الأولاد ومداعبة الأطفال لابد أنها موجودة فيها بأفضل صوَرها وأجملِ أشكالها..[1] فيا بشرى أولئك الآباء الذين فقدوا أطفالهم في دار الدنيا!.

الإشارة الخامسة:

إن نتيجة محبتك لصالح الأصدقاء والأقرباء التي يتطلبها «الحب في الله»، إنما هي في جلوسكم على سُرُر متقابلين ومؤانستكم بلطائف الذكريات، ذكريات أيام

---

(١) الترمذي، صفة الجنة ٢٣؛ ابن ماجه، الزهد ٣٩؛ الدارمي، الرقاق ١١٠؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣/ ٨٠؛ ابن حبان، الصحيح ١٦/ ٤١٧؛ أبو يعلى، المسند ٢/ ٣١٧.

الدنيا وخواطرها الجميلة، وقضاء وقت ممتع وجميل بهذه المحاورة والمجالسة. كما هو ثابت بنص القرآن الكريم.

الإشارة السادسة:

أما نتيجة محبة الأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحين حسب ما بينه القرآن الكريم، فهي كسبُ شفاعة أولئك الأنبياء الكرام والأولياء الصالحين في عالم البرزخ، وفي الحشر الأعظم فضلا عن الاستفاضة -بتلك المحبة- من فيوضات مقاماتهم الرفيعة ومراتبهم العالية اللائقة بهم.

نعم، إن الحديث الشريف ينص على أن «المرء مع من أحب»[1] فالإنسان إذن يستطيع أن يرتفع إلى أعلى مقام وأرفعِه بما نسج مع صاحبه من أواصر المحبة وبانتمائه إليه واتباعه له.

الإشارة السابعة:

إن محبتك للأشياء الجميلة وللربيع، أي نظرك إليها من زاوية قولك: «ما أجملَ خلقَه!» وتوجيه محبتك إلى ما وراء ذلك الشيء الجميل من جمال الأفعال وانتظامها، وإلى ما وراء تلك الأفعال المنسقة من جمال تجليات الأسماء الحسنى، وإلى ما وراء تلك الأسماء الحسنى من تجليات الصفات الجليلة..

(١) البخاري، الأدب ٩٦؛ مسلم، البر ١٦٥؛ الترمذي، الزهد ٥٠؛ الدارمي، الرقاق ٧١.

وهكذا.. إن نتيجة هذه المحبة المشروعة هي مشاهدةُ جمالٍ أسمى من ذلك الجمال الذي شاهدتَه في المصنوعات بألوف ألوف المرات. أي مشاهدة تجليات الأسماء الحسنى وجمالِ الصفات الجليلة بما يليق بالجنة ودار البقاء. حتى قال الإمام الرباني السرهندي رضي الله عنه: «إن لطائف الجنة إنما هي تمثلات الأسماء الحسنى» فتأمل!.

الإشارة الثامنة:

أما محبتك للدنيا محبةً مشروعة، أي محبتك لها مع التأمل والتفكر في وجهَيها الجميلين اللذين هما: مزرعةُ الآخرة، ومرآةُ التجليات للأسماء الحسنى، فإن نتيجتها الأخروية هي أنه سيوهَب لك جنة تسع الدنيا كلَّها، ولكنها لا تزول مثلها، بل هي خالدة دائمة. وستُظهَر لك في مرايا تلك الجنة تجلياتُ الأسماء الحسنى بأزهى شعشعتها وبهائها، تلك التي رأيت بعض ظلالها الضعيفة في الدنيا.

ثم إن محبة الدنيا في وجهها الذي هو مزرعة للآخرة، أي باعتبار كون الدنيا مشتلا صغيرا جدا لاستنبات البذور لتتسنبل في الآخرة وتثمر هناك، فإن نتيجتها هي أثمارُ جنة واسعة تسع الدنيا كلها، تنكشف فيها جميعُ الحواس والمشاعر الإنسانية التي يحملها الإنسان في الدنيا

كبُذيرات صغيرة، انكشافا تاما ونموا كاملا، وتتسنبل فيها بُذيرات الاستعدادات الفطرية حاملةً جميع أنواع اللذائذ والكمالات.. هذه النتيجة ثابتة بمقتضى رحمة الله الواسعة وحكمته المطلقة. وهي ثابتة كذلك بنص الحديث[1] الشريف وإشارات القرآن الكريم.

ولما كانت محبتُك للدنيا ليست لذلك الوجه المذموم الذي هو رأسُ كل خطيئة، وإنما هي محبة متوجهة إلى وجهَيها الآخرين أي إلى الأسماء الحسنى والآخرة، وقد عقدتَ لأجلهما أواصر المحبة معها وعمّرت ذينك الوجهَين على نية العبادة، حتى كأنك قمت بالعبادة بدنياك كلِّها.. فلابد أن الثواب الحاصل من هذه المحبة يكون ثوابا أوسع من الدنيا كلها، وهذا هو مقتضى الرحمة الإلهية وحكمتها.

ثم لأن تلك المحبة قد حصلت بمحبة الآخرة وكونها مزرعة لها، وبمحبة الله سبحانه، وكونها مرآة لإظهار أسمائه الحسنى.. فلاشك أنها تقابل بمحبوب أوسع من الدنيا كلها، وما هو إلّا الجنة التي عرضها السماوات والأرض.

سؤال: ما فائدة الجنة الواسعة سعة الدنيا؟

الجواب: لو كان من الممكن أن تتجول بسرعة الخيال في أقطار الأرض كلها، وتزور أغلبَ النجوم التي في السماء،

(١) البخاري، بدء الخلق ٨، التوحيد ٣٥؛ مسلم، الإيمان ٣١٢، الجنة ٢-٥؛ الترمذي، تفسير القرآن ٣٢/ ٢؛ ابن ماجه، الزهد ٣٩.

لكنت تقول عندئذٍ: إن العالم كلّه لي. فلا يزاحم حكمَك هذا ولا ينافيه وجودُ الملائكة والناس الآخرين والحيوانات معك في هذا العالم الواسع.

وكذلك يمكنك أن تقول: إن تلك الجنة لي، حتى لو كانت مليئةً بالقادمين إليها.

وقد بينا في رسالة «الجنة» -وهي «الكلمة الثامنة والعشرون»- معنى الحديث الوارد من أنه يُعطى لبعض أهل الجنة جنةٌ سعتُها خمسمائة سنة،[1] وكذا بيناه في رسالة «الإخلاص».

الإشارة التاسعة:

إن نتيجة الإيمان بالله ومحبتِه سبحانه هي رؤيةُ جمال مقدّس وكمال منـزّه للذات الجليلة سبحانه وتعالى، كما هي ثابتة بالحديث الصحيح[2] والقرآن الكريم. هذه الرؤية التي

---

(١) البغوي، شرح السنن ١٥/ ٢٣٢؛ السيوطي، الفتح الكبير ١/ ٦٢، ٣/ ٤٢٢؛ الهيثمي، مسند الحارث ٢/ ٦٥٥.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ناسا قالوا: **«يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟» فقال رسول الله ﷺ: «هل تُضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تُضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ترونه كذا»**. والحديث بطوله رواه البخاري، المواقيت ١٦، ٢٦، الأذان ١٢٩؛ مسلم، المساجد ٢١١-٢١٢؛ أبو داود، السنة ١٩؛ الترمذي، الجنة ١٦؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤/ ٣٦٠؛ ابن حبان، الصحيح ١٦/ ٤٧٣.

تساوي ساعة منها ألف ألف سنة من نعيم الجنة،[١] ذلك النعيم الذي ساعة منه تفوق ألف ألف سنة من حياة الدنيا الهنيئة، كما هو ثابت لدى أهل العلم والكشف بالاتفاق.

ويمكنك قياس مدى الشوق واللهفة التي تنطوي عليهما فطرةُ الإنسان لرؤية ذلك الجمال المقدس والكمال المنـزّه، ومدى ما فيها من رغبة جياشة وتَوق شديد والتياع لشهودهما، بالمثال الآتي:

كل إنسان يشعر في وجدانه بلهفة شديدة لرؤية سيدنا سليمان عليه السلام الذي أوتي الكمال، ويشعر أيضا بشوقٍ عظيم نحو رؤية سيدنا يوسف عليه السلام الذي أوتي شطرَ الجمال. فيا ترى كم يكون مدى الشوق واللهفة لدى الإنسان لرؤية جمال مقدّس وكمال منـزّه، الذي

(١) فقد ورد في الحديث الشريف: «... قال: فيكشف الله تبارك وتعالى تلك الحجب، ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره شيء لولا أنه قضى عليهم أن لا يحترقوا لاحترقوا مما غشيهم من نوره. قال: ثم يقال لهم: ارجعوا إلى منازلكم. قال: فيرجعون إلى منازلهم وقد خَفُوا على أزواجهم وخَفينَ عليهم مما غشيهم من نوره تبارك وتعالى، فإذا صاروا إلى منازلهم ترادّ النور وأمسكنَ حتى يرجعوا إلى صورهم التي كانوا عليها. قال: فتقول لهم أزواجهم: لقد خرجتم من عندنا على صورة، ورجعتم على غيرها؟ قال: فيقولون: ذلك بأن الله تبارك وتعالى تجلى لنا فنظرنا منه ما خفينا به عليكم...» رواه البزار، الترغيب والترهيب للحافظ المنذري ٤/ ٥٥٦.

من تجليات ذلك الجمال والكمال، الجنةُ الخالدة بجميع محاسنها ونعيمها وكمالاتها التي تفوق بما لا يحد من المرات جميعَ محاسن الدنيا وكمالاتها..

اَللّهمَّ ارزُقنَا فِي الدُّنيَا حُبَّكَ وَحُبَّ مَا يُقَرِّبُنَا إلَيكَ، وَالِاستِقَامَةَ كمَا أمَرتَ، وَفِي الْآخِرَةِ رَحمَتَكَ وَرُؤيَتَكَ.

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

اَللّهمَّ صَلِّ وَسَلِّم عَلَى مَن أرسَلتَهُ رَحمَةً لِلعَالَمِينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِينَ. آمِينَ

* * *

من أسرار

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يضم هذا المقام ستةً من أُلوف أسرار

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

تنبيه: لقد ظهر عن بُعدٍ لعقلي الخامد نورٌ ساطعٌ أشرق من أُفق رحمة الله في البسملة. فأردتُ تسجيله في صورةِ ملاحظات ومذكّرات خاصة بيّ، وقمتُ بمحاولة اقتناص ذلك النور الباهر بإحاطته بسورٍ من أسراره البالغة نحو ثلاثين سراً، كي يسهُل حصرُه ويتيسر تدوينه، إلّا أنني مع الأسف لم أُوفَّق تماماً الآن في مسعاي، فانحسرت الأسرارُ إلى ستة فقط.

والخطاب في هذا المقام موجّه إلى نفسي بالذات. فحينما أقول: «أيها الإنسان!» أعني به نفسي.

فهذا الدرس مع كونه خاصاً بي إلّا أنني أعرضه للأنظار الصائبة لأخوتي المدققين ليكون «المقام الثاني من اللمعة الرابعة عشرة» وعلّه يكون موضع فائدة لمن ارتبط بي برباط روحي، والذي نفسُه أكثر يقظةً مني وانتباهاً.

هذا الدرس متوجّه إلى القلب أكثر منه إلى العقل ومتطلّع إلى الذوق الروحي أكثر منه إلى الدليل المنطقي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ (النمل:٢٩-٣٠)

سنذكر في هذا المقام بضعةً من الأسرار:

السر الأول:

في أثناء تأملي في البسملة رأيتُ نوراً من أنوار ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ على الصورة الآتية:

إنَّ هناك ثلاثَ علامات نيّرة ساطعة للربوبية على سيماء الكائنات، وعلى قَسمات وجه الأرض، وعلى ملامح وجه الإنسان. هذه العلامات الزاهرة والآيات الساطعة متداخلٌ بعضُها في البعض الآخر، حتى إن كلاً منها يبين نموذجَ الآخر ومثاله.

فالعلامة الأولى: هي علامةُ الأُلوهية، تلك الآية الكبرى، الساطعةُ من التعاون والتساند والتعانق والتجاوب الجاري في أجزاء الكون كله؛ بحيث يتوجه ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ إليها ويدل عليها.

العلامة الثانية: هي علامة الرحمانية، تلك الآية العظمى، الزاهرةُ من التشابه والتناسب والانتظام والانسجام واللطف والرحمة الساري في تربية النباتات والحيوانات؛ بحيث يتوجّه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ ﴾ إليها ويدل عليها.

ثم العلامة الثالثة: وهي علامة الرحيمية، تلك العلامة السامية، الظاهرةُ من لطائف الرأفة الإلهية ودقائق شفقتها وأشعة رحمتها المنطبعة على سيماء الماهية الجامعة للإنسان، بحيث يتوجّه اسم «الرحيم» الذي في ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ إليها ويدل عليها.

أي إن ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ عنوانٌ قُدسي لثلاث آيات من آيات الأحدية، حتى إنه يُشكّل سَطراً نورانياً في كتاب الوجود، ويخط خطاً ساطعاً في صحيفة العالم، ويمثل حبلاً متيناً بين الخالق والمخلوق. أي أن ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ نزولاً من العرش الأعظم يرتبط طرفه ونهايته بالإنسان الذي هو ثمرة الكائنات ونسخةُ العالم المصغرة، فيربط الفرشَ بالعرش الأعظم، ويكون سبيلاً ممَهداً لعروج الإنسان إلى عرش كمالاته.

السر الثاني:

إن القرآن الكريم يبين دوماً تجلي «الأحدية» ضمن تجلي «الواحدية» ليحُول دون غرق العقول وتشتتها في تلك «الواحدية» الظاهرة في مخلوقات كثيرة لا يحصرها العّد.

ولنوضح ذلك بمثال:

الشمس تحيط بضيائها بما لا يحدّ من الأشياء. فلأجل ملاحظةِ ذاتِ الشمس في مجموع ضيائها يلزم أن يكون هناك تصورٌ واسعٌ جداً ونظر شامل. لذا تُظهِرُ الشمسُ ذاتَها بوساطة انعكاس ضوئها في كل شيء شفاف، أي يُظهِر كلُّ لماعٍ حسب قابليته جلوةَ الشمس الذاتية مع خواصها كالضياء والحرارة، وذلك لئلا تُنسى ذاتُ الشمس. ومثلما يُظهِر كلُّ لماع الشمسَ بجميع صفاتها حسب قابليته، تحيط أيضاً كلُّ صفةٍ من صفات الشمس كالحرارة والضياء وألوانِه السبعة بكلِّ ما يقابلها من أشياء.

ولا مشاحة في الأمثال ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فكما أنَّ لله سبحانه الأحد الصمد تجلياً في كل شيء بجميع أسمائه الحسنى، ولاسيما في الأحياء، وبخاصةٍ في مرآة ماهية الإنسان. كذلك كل اسم من أسمائه الحسنى المتعلقة بالموجودات يحيط بالموجودات جميعاً من حيث

الوحدة والواحدية. فيضع سبحانه وتعالى طابعَ الأحدية في الواحدية نصبَ عين الإنسان وأمام نظره كيلا تغرق العقولُ وتغيب في سعة الواحدية ولئلا تنسى القلوبُ وتذهل عن الذات الإلهية المقدسة.

فـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يدل على ثلاثٍ من العقد المهمة لذلك الطابع المميز ويبينها.

السر الثالث:

إنه بديهي، بل مشاهَد أن الرحمة الإلهية هي التي أبهجت الكائنات التي لا يحدها حدود..

وأن الرحمة نفسها هي التي أنارت هذه الموجودات المغشية بالظلمات..

وأن الرحمة أيضاً هي التي ربَّت في أحضانها هذه المخلوقات المتقلبة في حاجات لا حد لها..

وأن الرحمة أيضاً هي التي وجّهت الكائنات من كل صَوب وحَدب وساقتها نحو الإنسان وسخَّرتْها له، بل جعلتها تتطلع إلى معاونته وتسعى لإمداده، كما تتوجه أجزاءُ الشجرة إلى ثمرتها..

وأن الرحمة أيضاً هي التي عمَّرت هذا الفضاء الواسع وزيَّنت هذا العالم الخالي..

وأن الرحمة نفسها هي التي جعلت هذا الإنسان الفاني مُرشحاً للخلود والبقاء، وأهَّلته لتلقّي خطاب رب العالمين ومَنَحَتْه فضل ولايته سبحانه.

فيا أيها الإنسان!

ما دامت الرحمةُ محبوبة، ولها من القوة والجاذبية والإمداد إلى هذا الحد، فاستعصم بتلك الحقيقة بقولك ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وانقذ نفسك من هول الوحشة المطلقة، وخلّصها من آلام حاجات لانهاية لها، وتقرّب إلى ذي العرش المجيد، وكن مخاطَباً أميناً وخليلاً صادقاً له، بأنوار تلك الرحمة ورأفتها.

نعم، إن حشدَ الكائنات وجمعَها حول الإنسان ضمن حكمةٍ مقدَّرة، وجعلَ كلٍّ منها يمد يد العون إليه لدفع حاجاته المتزايدة، نابع بلا شك من إحدى حالتين اثنتين: فإما أن كل نوع من أنواع الكائنات يعرف الإنسان ويعلم به فيطيعه ويسعى لخدمته، أي إن هذا الإنسان الغارق في عجز مطلق يملك قدرة سلطان مطلق (وهذا بعيد كل البعد عن منطق العقل فضلاً عما فيه من محالات لا تحد).. أو إن هذا التعاون والإمداد إنما يتم بعلمٍ محيط لقادر مطلق محتجب وراء الكائنات.. أي إن أنواع الكائنات لا تعرف هذا

الإنسان لتُمد له يدَ العون، وإنما هي دلائل على مَن يعرف هذا الإنسان ويرحمه، ويعلم بحاله.. وهو الخالق الرحيم.

فيا أيها الإنسان عُدْ إلى رشدك! أوَ يمكن ألّا يعلم بك وألّا يراك هذا الربُّ الرحيم، وهو الذي دفع المخلوقات لمعاونتك ملبيةً جميع حاجاتك؟

فما دام سبحانه يَعلمُ بك ويُعلِمُك بعلمهِ هذا بإسباغ رحمته عليك، فما عليك إلّا بذل الجهد لمعرفته، والسعي لإظهار معرفتك له بتوقير أوامره.

واعلم يقيناً أنه ليست إلّا حقيقةُ الرحمة الإلهية -التي تسع الحكمةَ والعناية والعلمَ والقدرة- قد سخَّرتْ لك هذه الكائنات، وجَعَلَتها طوع إرادتك، وأنت المخلوق الضعيف الصغير العاجز الفقير الفاني.

فرحمةٌ عظيمة إلى هذا الحد، واسعةٌ إلى هذا القدر.. لاشك أنها تطلب منك شكراً كلياً خالصاً، وتعظيماً لا يَشوبُه شيءٌ.

فاعلم أنه لا يُترجم لك ذلك الشكرَ الكلي والتعظيم الخالص إلّا ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ . فقله، واتخذه وسيلةً لبلوغك تلك الرحمة الواسعة، واجعله شفيعاً لك لدى الرحمن الرحيم.

حقاً! إن وجودَ الرحمة وظهورَها أظهرُ من الشمس في كبد السماء؛ إذ كما يحصل نسجُ نقشٍ جميل في المركز من تناسق لُحمَته وسَداه ومن انتظام أوضاع خيوطٍ تمتد من كل جهة نحو المركز.. فإن خيوطَ شعاع النور النابع من تجلي ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى، والممتدة إلى هذا الكون الشاسع تنسج على سيمائه نسيجاً في غاية الروعة والجمال ضمن إطار الرحمة السابغة، حتى يُظهِر للعقول -أوضحَ من الشمس للعيون- ختماً واضحاً للرحيمية، ونقشاً رائعاً للشفقة والرأفة، وشعاراً بديعاً للعناية.

نعم، إنَّ الذي ينظّم الشمس والقمر والعناصر والمعادن والنباتات والحيوانات، وينسقها جميعاً بأشعة ألف اسم واسم، كأنها لُحمةُ نقشٍ بديع وسَداه، وخيوطُه النورانية، ويسخّرها جميعاً في خدمة الحياة.. والذي يُظهر رأفتَه وشفقته على الخلق أجمعين بما أودع في الوالدات -من نبات وحيوان- تلك الشفقة الحلوة اللذيذة تجاه صغارها.. والذي أظهر أسطع تجليات رحمته، وأجمل نقوش ربوبيته سبحانه، بتسخيره الأحياء لحياة الإنسان، مبيناً به منزلة الإنسان لديه وأهميته عنده.. هو الرحمن ذو الجمال الذي جعل رحمته الواسعة هذه شفيعةً مقبولة مأنوسة لدى غناه

المطلق، يتشفّع بها ذوو الحياة والإنسان المفتقر فقراً مطلقاً إلى تلك الرحمة.

فيا أيها الإنسان! إنْ كنت إنساناً حقاً، فقل:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ لتظفر بذلك الشفيع.

إنه بديهي، بل مشاهَد أن الرحمة هي التي تربي طوائفَ النباتات والحيوانات التي تربو على أربعمائة ألف طائفة، رغم تباينها وتنوعها.. وهي التي تدير أمورها جميعاً بلا التباس ولا نسيان ولا اختلاط، وفي أنسبِ وقت وأكمل نظام وأتم حكمة وأوفق عناية، حتى وضَعَتْ بهذه الإدارة والتربية طابعَ الأحدية وختمَها على سيماء الأرض.

نعم، إنَّ وجود تلك الرحمة ثابت وقطعي كوجود الموجودات المبثوثة على الأرض، كما أن دلائل تحققها بعدد تلك الموجودات.

ومثلما نشاهد على وجه الأرض آيةَ الأحدية وسمتَها وختمَ الرحمة وطابعَها، فإن على سيماء الماهية المعنوية الإنسانية أيضاً طابعَ الرحمة.. هذا الطابع والختم ليس بأقل وضوحاً من ذلك الذي على وجه الأرض، ولا من ذلك الذي على وجه الكائنات.. بل إن سمة هذه الرحمة لها من الجامعية والشمول حتى كأنها بؤرةٌ لامّةٌ لأنوار تجليات الأسماء الحسنى.

فيا أيها الإنسان!

إن الذي وهب لك هذه السيماء المعنوية، ووضع عليها الرحمةَ وخَتَمها بختم الأحدية، أَمِن الممكن أن يتركك سُدىً، ولا يكترث بك ولا يهتم ولا يراقب أعمالك وحركاتك؟ أوَ من الممكن أن يجعل حركة جميع الكائنات المتوجهة إليك عبثاً لا طائلَ من ورائها؟ أو يجعل شجرة الخلقة العظيمة شجرة تافهة، وثمرتها ثمرة فاسدة؟ أم هل يمكن أن يضع رحمته الظاهرة ظهور الشمس -والتي لا تحتمل شكاً ولا ريباً- ويضع حكمتَه الواضحة وضوح النور، موضعَ الإنكار والجحود؟ كلا.. ثم كلا.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فيا أيها الإنسان!

اعلم أن لبلوغ عرش تلك الرحمة معراجاً.. ذلك المعراج هو: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

فإن شئت أن تعرف مدى أهمية هذا المعراج ومدى عظمتِه ومكانته فانظر إلى مستهل سور القرآن الكريم البالغة مائة وأربع عشرة سورة، وانظر بدايات كل كتاب قيّم، ولاحظ بدء كل أمر ذي بال. حتى يُعدّ حجة قاطعة على عظمة البسملة وعلو قدرها ما قاله الإمام الشافعي رضي

الله عنه وأمثاله من المجتهدين العظام: «إنَّ البسملة رغم أنها آية واحدة فإنها نزلت في القرآن مائة وأربع عشرة مرة».[1]

السر الرابع:

إنَّ تجلي الواحدية في مخلوقاتٍ لا حدّ لها، لا يحيط به كلُّ مَن يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ . حيث يتشتت الفكرُ ويتيه في تلك الكثرة، إذ يلزم لملاحظة ذات الله الأحد من خلال مجموع المخلوقات لدى خطاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وجودَ قلبٍ واسعٍ يسع الأرض كلها.

فبناءً على هذا السر الدقيق فإنَّ الله سبحانه يبيّن بجلاء طابعَ الأحدية في كل جزءٍ مثلما يُظهِره في كل نوعٍ، وذلك لتُشَدَّ الأنظارُ إلى ذات الله الأحد، وليتمكن كلُّ شخص -مهما بلغتْ مرتبتُه- من التوجّه المباشر في خطابه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ إلى ذات الله الأقدس سبحانه من دون تكلّف أو صعوبة.

فتبياناً لهذا السر العظيم فإن القرآن الكريم عندما يبحث في آيات الله في أجواء الآفاق وفي أوسع الدوائر إذا به يذكُر أصغرَ دائرةٍ من دوائر المخلوقات وأدقَّ جزئيةٍ من جزئياتها، إظهاراً لطابع الأحدية بوضوح في كل شيء.

---

(١) الشافعي، الأم ١/ ٢٠٨؛ الجصاص أحكام القرآن ١/٨؛ الغزالي، المستصفى ١/ ٨٢؛ ابن الجوزي، التحقيق في أحاديث الخلاف ١/ ٣٤٥-٣٤٧ الزوائد، نصب الراية ١/ ٣٢٧

مثال ذلك: عندما يبين القرآن الكريم آيات خلق السماوات والأرض يعقبها بآياتِ خلق الإنسان وبيانِ دقائق النعمة في صوته وبدائع الحكمة في ملامحه، كي لا يتشتت الفكرُ في آفاق شاسعة، ولا يغرق القلبُ في كثرة غير متناهية، ولتبلغ الروحُ معبودَها الحق دون وساطة.

فالآية الكريمة الآتية تبين الحقيقة السابقة بياناً معجزاً: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ (الروم: ٢٢).

وكذا فإن آيات الوحدانية وأختامَها مع أنها قد وُضعت في المخلوقات بكثرة غير متناهية، ابتداءً من أوسع الأختام وأكثرها كلية إلى أصغرها جزئية، في دوائر متداخلة وفي مراتب متنوعة وأنواع شتى، إلّا أن وضوحَ هذه الأختام للوحدانية -مهما بلغ من الظهور- فهو وضوحٌ ضمن كثرةٍ من المخلوقات لا يُوفي حقَّ الوفاء حقيقةَ الخطاب في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لذا يلزم وجودَ طابع الأحدية في ثنايا ختم الوحدانية، كي يفتح الطريق أمام القلب للوصول إلى ذات الله الأقدس من دون أن يذكّره بالكثرة.

ثم، لأجل لفت الأنظارِ إلى طابع الأحدية، وجلبِ القلوب نحوها، فقد وُضع فوق تلك السمة للأحدية نقشٌ

بديعٌ في منتهى الجاذبية، ونورٌ باهر في منتهى السطوع، وحلاوةٌ لذيذة في منتهى الذوق، وجمالٌ محبوب في منتهى الحُسن، وحقيقة رصينة في منتهى القوة، تلك هي سمةُ الرحمة وختمُ الرحيمية.

نعم، إن قوة تلك الرحمة هي التي تجلب أنظار ذوي الشعور نحوها فتُوصلها إلى طابع الأحدية وتجعلها تلاحظ ذات الأحد الأقدس حتى تجعل الإنسان يحظى بالخطاب الحقيقي في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهكذا فـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من حيث إنه فهرسٌ لفاتحة الكتاب المبين وخلاصةٌ مجملة له، قد أصبح عنواناً لهذا السر العظيم المذكور، وترجماناً له، فالذي يتمكن من أن ينال هذا العنوان يستطيع أن يجول في طبقات الرحمة، والذي يستنطق هذا الترجمان يتعرّف على أسرار الرحمة ويتعلمها ويشاهد أنوار الرحيمية والرأفة.

السر الخامس:

لقد ورد في حديث شريف «**إن الله خلق آدمَ على صورة الرحمن**»[1] أو كما قال ﷺ.

---

(١) الحافظ في الفتح ٥/١٨٣؛ ابن أبي عاصم في السنة ١/٢٢٨؛ الطبراني ١٢/ ٤٣٠؛ الدارقطني، الصفات (ص ٣٦، رقم: ٤٨) عن ابن عمر بلفظ: (**لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن عز وجل**).

فسَّرَ قسمٌ من أهل الطرق الصوفية هذا الحديثَ الشريف تفسيراً عجيباً لا يليق بالعقائد الإيمانية، ولا ينسجم معها. بل بلغ ببعضٍ من أهل العشق أن نظروا إلى السيماء المعنوي للإنسان نظرتَهم إلى صورة الرحمن! ولمّا كان في أغلب أهل العشق حالةٌ استغراقية ذاهلةٌ والتباس في الأمور، فلربما يُعذَرون في تلقّياتهم المخالفة للحقيقة. إلّا أن أهل الصحو، وأهل الوعي والرشاد يرفضون رفضاً باتاً تلك المعاني المنافية لأسس عقائد الإيمان، ولا يقبلونها قطعاً. ولو رضيَ بها أحدٌ فقد سقط في خطأ وجانَبَ الصواب.

نعم، إن الذي يدبّر أمور الكون ويهيمن على شؤونه بسهولة ويُسر كإدارة قصر أو بيت.. والذي يحرك النجومَ وأجرامَ السماء كالذرات بمنتهى الحكمة والسهولة.. والذي تنقاد إليه الذراتُ وتأتمر بأمره وتخضع لحكمه.. إن الذي يفعل هذا كله هو الله القدوسُ سبحانه.. فكما أنه منزّه ومقدّس عن الشرك؛ فلا شريكَ له، ولا نظيرَ، ولا ضدّ ولا ندّ، فليس له قطعاً مثيلٌ ولا مثالٌ ولا شبيهٌ ولا صورةٌ أيضاً، وذلك بنص الآية الكريمة: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١) إلّا أن شؤونه الحكيمة وصفاتِه الجليلة وأسماءه الحسنى

يُنظَر إليها بمنظار التمثيل والمَثَل حسب مضمون الآية الكريمة: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الروم: ٢٧). أي إن المَثَل والتمثيل واردٌ في النظر إلى شؤونه الحكيمة سبحانه.

ولهذا الحديث الشريف مقاصدُ جليلةٌ كثيرة، منها: أنَّ الإنسان مخلوقٌ على صورة تُظهِر تجلي اسم الله «الرحمن» إظهاراً تاماً. فلقد بينا في الأسرار السابقة أنه مثلما يتجلى اسمُ «الرحمن» من شعاعات مظاهر ألف اسمٍ واسم من الأسماء الحسنى على وجه الكون، ومثلما يُعْرَض اسمُ «الرحمن» بتجليات لا تحدّ للربوبية المطلقة على سيماء الأرض، كذلك يُظهِر سبحانه التجلي الأتم لذلك الاسم «الرحمن» في الصورة الجامعة للإنسان، يُظهِره بمقياسٍ مصغر بمِثلِ ما يُظهره في سيماء الأرض وسيماء الكون بمقياس أوسعَ وأكبر.

وفي الحديث الشريف إشارةٌ كذلك إلى أن في الإنسان والأحياء من المظاهر الدالة على «الرحمن الرحيم» ما هو بمثابة مرايا عاكسة لتجلياته سبحانه، فدلالةُ الإنسان عليه سبحانه ظاهرة قاطعة جليّة، تشبه في قطعيتها وجلائها دلالةَ المرآة الساطعة بصورة الشمس وانعكاسها على الشمس نفسها. فكما يمكن أن يقال لتلك المرآة: إنها الشمس، إشارة إلى مدى سطوعها ووضوح دلالتها عليها، كذلك

يصح أن يقال -وقد قيل في الحديث- إن في الإنسان صورةَ «الرحمن»، إشارةً إلى وضوح دلالته على اسم «الرحمن» وكمال مناسبته معه ووثوق علاقته به. هذا وإن المعتدلين من أهل وحدة الوجود قد قالوا: «لا موجود إلّا هو» بناء على هذا السر من وضوح الدلالة، وعنواناً على كمال المناسبة.

اللّهمَ يا رَحمن يا رحِيم بحق

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

ارحمنا كما يليق برَحِيمِيَّتِكَ، وفهّمنا أسرار

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

كما يليق برَحمانِيَّتك آمين.

السر السادس:

أيها الإنسان المتقلب في خضم عَجز لا نهاية له وفَقر لا حد له، إذا أردت أن تفهم كيف أن الرحمة أعظمُ وسيلة وأرجى شفيع، فاعلم:

أن الرحمة أقوى وسيلة للوصول إلى سلطان عظيم ذي جلال، تنقاد له النجومُ والذرات معاً جنوداً مطيعين طاعةً تامة في انتظام تام.. ذلك السلطانُ ذو الجلال والإكرام رب العالمين المستغني عن الخلق أجمعين، الكبير المتعالي عن الموجودات، فلا حاجة له أصلاً إلى الموجودات،

بل كلُّ شيء قد تواضع لعظمته واستسلم لقدرته وذلّ لعزته وخضع لهيبة جلاله.. فالرحمة أيها الإنسان ترفعك إلى ديوان حضور ذلك الغني المطلق، وتجعلك خليلاً لذلك السلطان السرمدي الأعظم، بل تعرج بك إلى مقام خطابه الجليل، وتجعلك عبداً مكرَّماً محبوباً عنده.

ولكن، كما أنك لا تصل إلى الشمس لبُعدك عنها، بل لا يمكنك التقرب إليها بحال، فإن ضوءها يُسلِّم إليك تجليها وصورتَها بواسطة مرآةٍ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فنحن على الرغم من بُعدنا المطلق عن الله سبحانه وتعالى، فإن نورَ رحمته يقرّبه إلينا.

فيا أيها الإنسان! إن من يظفر بهذه الرحمة فقد ظفر بكنزٍ عظيم لا يفنى، كنزٍ ملؤه النور. أما طريق الوصول إلى ذلك الكنز العظيم فاعلم: أن أسطع مثالٍ للرحمة، وأفضل مَن يمثلها، وأبلغَ لسانٍ ناطقٍ بها، وأكرمَ داعٍ إليها، هو الذي سُمّي في القرآن الكريم ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وهو رسولنا الحبيب ﷺ. فالطريق الأمثل لبلوغ تلك الخزينة الأبدية هو اتباع سنته المطهرة.

ولكن كيف الوصول إلى الرسول الحبيب ﷺ، وما الوسيلة إليه؟

فاعلم أن الوسيلة هي الصلاة عليه... نعم، الصلاةُ عليه تعني الرحمة، فالصلاة عليه دعاء بالرحمة لتلك الرحمة المجسمة الحية، وهي وسيلة الوصول إلى مَن هو رحمة للعالمين.

فيا أيها الإنسان! اجعل الصلاة عليه وسيلةَ الوصول إليه، ثم استمسك به ليبلّغك رحمة الرحمن الرحيم. فإن الأمة جميعَها بدعائها وصلواتها على الرسول الكريم ﷺ إنما تثبت بوضوح مدى قيمة هذه الرحمة ومدى أهمية هذه الهدية الإلهية، ومدى سعتها وعظمتها.

الخلاصة: إنَّ حاجبَ خزينة الرحمة الإلهية وأكرمَ داعٍ إليها هو الرسول الكريم ﷺ كما أن أسمى مفتاح لتلك الخزينة هو ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ وأسلسَ ما يفتحها هو الصلوات على الرسول الحبيب ﷺ.

اَللّٰهُمَّ بحق أسرار ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ صلِّ على مَن أرسلته رحمة للعالمين كما يليق برحمتك وبحرمته وعلى آله وأصحابه أجمعين، وارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك من خلقك.. آمين.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

* * *

الفهرس